الطبعة الثانية

هدرا جرجس

صيَّاد الملائكة

رواية

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

المشروع@facebook.com

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

صيَّاد الملائكة

رواية

صيَّاد الملائكة

رواية

هدرا جرجس

الطَّبعة الثانية: يناير 2014

رقم الإيداع: 2013/21476

ردمك: 8 - 14 -5221 -977 - 978

الغلاف: أحمد مراد

دار الربيع العربي

للطباعة والنشر والدّعاية والإعلان

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

17 شارع مجلس الشعب، لاظوغلي،

وسط البلد، القاهرة، مصر

002- 02- 27942836

002- 01141411118

002- 01140848568

www.rabe3arabe.com

rabe3arabe@gmail.com

rabe3arabe

كافةُ الحُقوقِ محفوظةٌ للناشر©

ولا يحقُّ لأيِّ فرد أو جهة النقلُ أو الاقتباسُ دون إذنٍ كتابيٍّ.

صيَّاد الملائكة

رواية

هدرا جرجس

إلى

جيهان وكاراس

لأنكما ينبغي أن تزيدا ... وأنا أنقص

صدفة...

هذا كل ما في الأمر، قابلها اليومَ بالصدفة، فهي مجرد زبونة، دخلت إلى دكان صاحبه منصور، في وقت كان موجودًا فيه بالصدفة، كان يتفرَّج على التلفزيون القديم، الذي ركَّب له منصور وصلةً أتاحت له التقاط عشرين قناة إضافية، واحدة من هذه القنوات كانت تعرض برنامجًا مؤثرًا عن الأعاجيب التي تحدث في عالمنا هذا، وكان يشاهده، هو ومنصور، وفجأةً... دخلت البنت.

وجدَها تقفُ قدَّامه بالنِّقاب والإسدال الأسود الفضفاض، وهذا لا يعني له شيئًا، وإذا كانت عند دخولها قد شغلت حيز تفكيره للحظة، لحظة صغيرة وخاطفة، فهذا من دواعي الفضول والمفاجأة، ولا يمُتُّ إطلاقًا لموقفٍ ما تجاه هذه النوعية من الملابس، فهو لا يهتم بمثل هذه الأمور، وفي الواقع، هو لا يهتم بأيِّ أمور من الأصل.

نظر إليها، لحظة خاطفة، ثم عاد بعدَها إلى التلفزيون،

وفي الوقت الذي بدأت فيه البنت ممارسة مهامها كزبونة، بأن شملت الفتارين والأرفف بنظرة فاحصة، كان هو يُحَملِقُ في الشاشة المُضيئة بألوانها المهتزَّة، وكانت المشاعر قد عادت في داخله تضطرب من جديد، بين حزن وقرف وأسى ولوعة، فالمشهد الذي أخذ التلفزيون يُعيد بثَّه مِرارًا، وبالعرض البطيء غالبًا، كان مُدهشًا: أسد يأكُل بني آدم، يلتهمُه التهامًا مؤثرًا، يقبض بفكَّيه على رقبة المسكين، فتختلط التأوُّهات بالزَّمجرة بصرخات فزعٍ آتيةٍ من بعيد، وكانت الكاميرا في يد المُصوِّر تهتز، فيهتز الكادر المزعج كأنه حُلم.

كان التلفزيون أمامَهما موضوعًا على أحد الأرفف، بين زجاجات العطور والشامبوهات وكريمات البشرة والشَّعر، وفي أول الأمر، لم يكن هو، أو منصور، يهتمَّان بما يبثُّه، من أغانٍ، إعلانات، حفلات رقص على الشواطئ، مجرد ونسة صوتية لا أكثر، انشغلا عنها بالكلام، كان يقول لصاحبه منصور أنه بدأ أخيرًا في كتابة قصة، استنسخ تفاصيلها من حُلم قديم، وربما من شعور حقيقي، لكنه غامض، بدأ ينتابه أحيانًا، وراحَ يحكي...

وقبل أن ينتهي من سرد تفاصيل القصة، فوجئ بمنصور يقول: «يخرب بيتك»! بهمس ودهشة، وقام فجأةً وقبَّله،

لأنه ـ كما قال ـ يحسُّ بحالة بطل القصة نفسها تقريبًا، فمنذُ أيام وهو يصحو وكله يقين أن حَجَرًا ثقيلًا رابضًا فوقَ صدرِه.

لكنه لم يكن حَجَرًا في القِصة، بل ثعبان، يصحو واحد من بني آدم، فيجده رابضًا فوق صدره، كامنًا وهادئًا، يتغلَّب البني آدم على الصدمة بالهدوء، لأنه كان ذكيًّا بدرجة كافية، فعرف أن أيَّ حركة ليست في صالحه، فربما ينزعج الثعبان، ويبدأ في الهجوم مع أول مبادرة صراخ أو حركة، فظل هكذا، لا يتحرك ولا يتنفس، لدرجة أن مَن يراه سيشعر أنه مُتصالح تمامًا مع الموقف، كأن الثعبان صاحبٌ قديمٌ، أو مُجرد حيوان أليف يُداعب مربِّيه.

لكن اليوم ينتهي، كما هو مُتَّفق عليه مع كل الأيام، تغيب الشمس، وتُظلم الغرفة، ويصير الثعبان غير مرئيٍّ، رغم أنه ما زال يترك دليل وجوده فوق صدر البني آدم، وهذا الأخير، الذي لم يجد شيئًا يفعله غير التحديق في الثعبان، كل اليوم تقريبًا، يشعر بالنُّعاس، وهذه ضرورة، فالنوم سُنَّة الحياة، مثل الموت تمامًا، وهما في الواقع نسخة واحدة، فالنوم صورة مُصغَّرة من الموت، صورة مؤقَّتة، نسخة تجريبية تُشبه البروفة، ساعات من الهُدنة ونسيان الحياة، والبني آدم ـ بطل القصة ـ حتمًا كان سينام، حتى ولو أن الثعبان

ما زال فوق صدره، يُغمض عينيه، وتنتهي القصة، لتبدأ من جديد في نهار اليوم الجديد.

ولكن مَن مِنهما لَمَح التلفزيون أولًا!

على وجه التَّحديد، هو منصور، وكان ذلك قبل دخول البنت بخمس دقائق، وهي ترفل في مملكة القماش الأسود الفضفاض، لحظتها بدأت مشاهد الأسد الذي يأكل البني آدم، فبدا مأخوذًا جدًّا بالمنظر، حتى إنه أمسك الريموت ورفع درجات الصوت، كعلامة على دخوله إلى حالة من الانتباه الكامل، وبدأ بالتدريج يستوعب الموقف، حتى وصل لأن يزعق بنبرة لوم وحنق حقيقية...

ـ هو الغلطان!

وطبعًا هو الغلطان، لو ظلَّ جنبَ صاحبه المصوِّر، ولم يخرج من السيارة الفورد الضخمة، مُعرِّضًا نفسَه للأسد الهائج، لما حصل ما حصل.

بعكس صاحبه منصور، ظلَّ هادئًا، وهو في كل الأحوال لا يترك هذا الهدوء، تلك عادته، لدرجة أن منصور، كان يُسمِّيه الشبح، ويبرر تلك التسمية، ضاحكًا، بأنه يشعر أن صاحبه هذا، كما لو كان، محضَ رُوح هائمة، لا يتكلم كثيرًا، ولا يضحك، ولا يبكي، ولا يُبدي انفعالًا، وفي أكثر الأحيان كان

يشك في وجوده من الأصل! لكن سكوته هذه المرة حمل تعاطفًا خفيًّا مع هذا الرجل المأكول، فهو ـ في نظره ـ بلا شك مُغامِر، يحاول البحث عن تجربة مُثيرة، غير أنه في كل الأحوال ميِّت، بأسد أو بغيره هو ميِّت.

منصور المُندهش الغاضب، لم يكف قط عن التعليق، وهو يُحملق في الشاشة بذهول، أطلق مئات الشتائم، وأرسل أكثر من عتاب، كأنه يتعامل مع موقف حيٍّ، وليس مع أثير يلتقطه تلفزيونه القديم، ولم يُخرجه من تلك الحالة إلا دخول البنت.

بَدَتْ، عند دخولها، كخيمةٍ سوداء مُتحرِّكة، لم يظهر منها غير عينيها، زائغتين وناعستين، كأنها تتلصَّص بهما على الدنيا والأشياء من حولها، وتتربَّص بالخارج وهي داخل خبائها المُحكَم، الذي ضنَّ حتى على كفَّيها بالظهور، فقمعتهُما داخل جوانتي أسود لامع.

نظر لها نظرةً واحدةً، وعاد بعدَها لمشاهدة الافتراس، بعد أن وجدها ـ ككل زبونة ـ تتصفَّح الفتارين والأرفف، لكنها، وبالتدريج، بدأت تحوِّل عينيها جهةَ التلفزيون، وحينما تبيَّنتْ مشهد الافتراس، راحت تضحك، ثم خبطتْ بيدها على صدرِها، وصرختْ بنعومة مُثيرة...

ـ يا خرابي!

ملائكة الشُّرفة... وشياطين السّطوح

(1)

اسمه حنَّا، في الخامسة والثلاثين، ويعيش في هذه الشقة وحدَه، وهو لا يُضطر لفعل ذلك، إلا لأسبوع واحد كل شهرين، أسبوع الإجازة، الذي يسبقه شهران من العمل على باخرة سياحية، وهكذا، بوتيرة واحدة، شهران للعمل، وأسبوع للإجازة، شهران للعمل، وأسبوع للإجازة، يحدث هذا منذ فترة طويلة، تقريبًا سبع سنوات.

ولكن إجازته هذه المرة تأخَّرت، بحيث إنه أمضَى على الباخرة شهرًا إضافيًّا، ولذلك لم يُطِق المبيت فيها ليلة أمس، بعد أن انتهى من دوام عمله، عند الساعة العاشرة، وحصل أخيرًا على إجازته المُنتظرة، تركها في أسوان، وجاء في

ميكروباص، بعد ساعة واحدة تقريبًا، فهو يعيش في مدينة صغيرة، لا تبعُد عن أسوان كثيراً، جاء مُتعبًا، ونام فورًا.

كانت الباخرة، على كل حال، ستصل صباح اليوم إلى مدينته، وترسو أمام شُرفة شقَّته المُطِلَّة على النيل، فقط، كان عليه أن يبيت فيها، ليصحو في مدينته، وأمام شقته، وفي إجازة، ولكنه كان يحس بأنه عصفور أُطلِقَ سراحُه، وينبغي أن يطير حالًا وفورًا، بالإضافة إلى أن وضع العمل، لا يبشِّر براحة، وهو بطبعه كان يخشى المفاجآت، فما بين ليلة وضُحاها يمكن أن يحدث الكثير، ومع أيِّ طارئ، قد يُغريهم وجوده، فيُلغوا الإجازة ويستبقونه، وفي داخل نفسه، لن يقتنع بأنه حصل على إجازة قبل أن يدخل إلى شقته ويُغلق بابها عليه، وقد يبدو هذا مبالغةً ليست طبيعية.

لكنه مع ذلك، يبدو منطقيًا جدًّا بالنسبة إلى واحد مثل حنًّا، يعتبر شقته «فلك نوح» وينتظر بصورة دائمة اندلاع الطوفان.

ولأنه يُحب النوم، نام طويلًا، وبعُمق، كعادته قبل أن يعمل على الباخرة، حيث كان ينام في اليوم، نصفه، بالضبط، اثني عشرة ساعة، فعل ذلك لفترة طويلة، تقريبًا خمس سنوات، وكان يشعر بقدر من اللذة، للدرجة التي جعلته يفكر يومًا، لولا السنوات التي مرَّت، من قبلُ ومن بعدُ، دون

أن يلتفت لروعة هذا النظام، كان سيحسب عُمره بسهولة، يقول لمن يسأله:

ـ أنا في الثلاثين... لكن عُمري الحقيقي خمسة عشر.

وهو صادق... لأنه يقصد نصف النوم، طبعًا، لأن النعاس سيد الفضائل، ولذلك يخشى حنًّا مُراوغته، فعندما يأتي، فقط، يترك نفسه بالكامل للذوبان في تلك الراحة، ويستلهم منها حكاياته التي يكتبها، فهو لا يعتبر نفسه كاتبًا، بقدر ما هو مجرد نوَّام، ينام باجتهاد حقيقي.

وعندما يصحو يدوِّن أحلامَه، لا لهدف مُعيَّن، إنما لأنه يحب فعل ذلك، وحدث أن راقت أحلامه للبعض، أو وجدوا فيها شيئًا مسَّ أعماقَهم، فقدَّموها في كتاب، لم يدفع صدورُه حنًّا أن يعتبر نفسه كاتبًا، بل دفعه إلى تقنين الوضع، حيث جاهد للعيش نصف العمر نائمًا.

لكنه وجد صعوبةً، فقد كان يصحو قبل أن يُتِمَّ الساعات المُقرَّرة، فيُرغم نفسَه على النوم إرغامًا، فيعود ويصحو قبلَها أيضًا، ولم يشأ أن يستخدم الحبوب المنوِّمة، أراد أن يكون اندفاعه لهذا الأمر طبيعيًّا، وهو ما تحقَّق فيما بعد، بالضبط، اثنى عشرة ساعة كاملة، لم تنقُص، ولم تزد، وفي أول الأمر انتابه شعور بالكسل، وأحسَّ بأن ضلوعه مُفككة،

وجسمه هامد، وكان يريد أن ينام أيضًا، وأكثر، وفكر... ماذا لو نام واحد من بني آدم الأربعة والعشرين ساعة بالكامل؟

هذا هو الموت بعينه!

لكن... قُدِّرَ لحنًّا أن يستيقظ في هذا النهار، ولا يموت، هذا أول أيام إجازته، كان لا يزال مُستلقيًا على السرير، حينما سحب علبة السَّجائر من تحت المخدة، وراح يدخِّن، كعادته واحدة وراء الأخرى، فغالبًا ما يصحو وهو مشتاق للنيكوتين، بصرف النظر عن هواجس الصحة والمرض، التي أحيانًا ـ وتبعًا للحالة النفسية ـ تُتعب ضميره.

وبينما هو يدخن، تخيَّل غرفته كصندوق مُغلَق، أرضه سقف لصندوق آخر، يرقد تحته صاحبُه القديم حسين على كرسيِّه المتحرِّك، وسقفه أرض لصندوق ثالث، يتضاجع فوقه مُدرِّس ومُدرِّسة حديثا الزواج، وأضلاعه حيطان مشتركة لصناديق أخرى، منفصلة ومتراصَّة تحت وفوق وجنب بعضها، بصورة لا نهائية، بداخلها حيوات متنوعة ومُعقَّدة، وناس لا تعرف بعضها بعضًا.

كان يتأمل ضوء الشمس الشاحب الذي يمتد في خطوط مستقيمة، ويرسم على السقف والحيطان بقعًا، مربعات ودوائر ومثلثات، على حسب نوعية الثقوب الذي يدخل

منها، حينما فتح الشُّرفة تلاشت جميعًا، ودخل ضوء شاحب وغبار، كانت الشُّرفة لا توحي قط بأنها لشقة مسكونة، فالتراب يُغطي كل شيء، فضلًا عن أكوام الكراكيب: خشب تالف، ومسامير صدئة، وبقايا كراسٍ مُكسَّرة.

كانت الشُّرفة ـ في زمنٍ مضى ـ جنةً، تحفُّ أرضيتَها أُصص الزرع، وتتوسطها سجادة حمراء، فوق وبرِها الناعم كان يتمدَّد ويغفو في أمسيات الصيف، حيث يجيئها التليفزيون محمولًا فوق منضدة تتحرك بأربع عجلات، ويبث في أركانها صوته الحميمي المختلط برائحة النيل، كانوا أربعة، تجهِّز لهم سناء الشاي، وتحمله على صوانٍ منقوشة من النحاس، فوق كل صينية ثلاثة أكواب، لها واحد ولتوفيق واحد.

أما حنَّا الصغير، فيرتشف ما يتبقى من الكوب الثالث، وهو ثقيل كالحبر، لا طعم للسُّكر فيه، تهتف سناء وهي ترشقه بإصبعها «شاي بابا». يرتشف نصيبَه المُقرر من قعر الكوب متصنِّعًا التلذُّذ، يمتصُّه امتصاصًا، يخرج بصوت يشبه الصَّفير.

فيضحكون...

هنا، وفي إحدى الأمسيات الصيفية، قبل ثلاثين عامًا مضت، كان حنَّا قد غفا فوق السجادة الحمراء، فتركوه

ينام، كما جرت العادة، حتى ينتهي الدكتور دميان من قراءة إصحاحه اليومي، ويحمله بعدها إلى السرير، إلا أن ما حدث يومها كان أمرًا عجيبًا، حيث سمع صرخة سناء المفزوعة، فقفل الإنجيل بسرعة، وقفز ناحيتها جريًا، وعند الصالة قابله توفيق لاهثًا.

ـ إلحق يا بابا... إلحق بسرعة.

كان حنًّا الصغير واقفًا ببجامته الكستور، يتصبَّب عرقًا، وجسدُه يرتعش، يهذي بكلمات غريبة، يتعثَّر في نطق حروفها، يُخاطب أشباحًا غير مرئية، وعيناه الجاحظتان مثبتتان في الفضاء أمامَه بفرحة، ونحو اللا شيء ينظران بلا خوف، اقترب الدكتور دميان ليحميه في حضنه، وحَمَلَهُ ـ وهو بين النَّوم واليقظة ـ إلى غرفته.

وفي الصبح حكى له حنًّا ما حصل، قال أنَّ ملائكةً صغيرةً حلوةً ولها أجنحة، حملته وطارت به إلى هناك، إلى سهل منبسط حتى حدود المدى، ممتد من الأرض إلى السماء، ومتألق بانعكاسات الماء الفضيَّة المُبهجة، مُفعم بنسيم الخُضرة ورائحة الورود وزقزقة العصافير، وتركوه يجري فرحانًا في تلك الحديقة الرائعة، فاتحًا ذراعيه للهواء الذي يعزف بين فروع الأشجار (لحن يجنن)...

ـ يا سلام!

صاح الدكتور دميان وهو يبتسم لابنه بشيء من الريبة، فهذا المكان الرائع لا يمكن أن يكون من نسج خياله أبدًا، ولا يمكن أن تصل به التوهُّمات لهذا الحد من الكلمات المرتَّبة، وهو بعدُ طفل لم يتجاوز السادسة، يصف تلك الجنة التي رآها، كما لو كانت حديقة غارقة تحت الماء، أو فردوسًا مختفيًا بين السُّحب...

ـ فين المكان الحلو ده يا بابا؟

ـ مش عارف، لكن ممكن تحاول ترسمه؟

ـ ممكن جدًّا.

ـ عظيم... يبقى أكيد ها نعرف هو فين.

أعطاه ورقة بيضاء وقلم رصاص، وراح من بعيد يُراقبه، خطَّ حنًّا خطوطه على الورقة متوترًا، ثم رفع عينيه نحوَ أبيه ليسأل:

ـ أرسم صورة شجرة؟

ـ ارسم.

كان الدكتور دميان يتظاهر بقراءة الجريدة، إلا أنه راح

من بعيد يُراقبه، فعيناه لا تريان إلا حنًّا الصغير، مقرفصًا على أرض الصالة ليرسم.

عقله دائمًا يفكِّر في هذا الولد الذي يتَّسم بشيء من الغرابة، ولا يمكن مع غرابته تلك إلا أن يكون فنانًا أو قديسًا أو معتوهًا، كان يتركه تحت الجميزة المجاورة لحوش الإدارة البيطريَّة، حيث يعمل، فيظل الولد جالسًا بشرود، يخطُّ على التراب بعصا صغيرة، يرسم دوائر ومربعات ثم يطمسها، وأحيانًا تأتيه قطة رقطاء تستأنس للقعود بجانبه، يمسِّد رأسها فتتمسح بساقيه.

كان يراه كدُمية صغيرة حُلوة وصعبة الفهم، عندما يدلِّي عينيه من الشباك ليحدبا عليه بنظرة سريعة ويعودا، فتضحك زكية زميلته، تقول أنها المرة العاشرة التي ينظر فيها إلى الولد من الشباك، فيبث لها خوفَه على هذا النبت الخيالي الطالع على حافة مستنقع الدنيا، ويفتح لها من مربع الشباك مجالًا لتشاركه الفرجة والرأي، فتنظر إلى الولد وإلى قطته ثم تضحك.

تقول أن ولدها الذي يكبره ببضعة أعوام عندما تمكَّن من قطة خنقها، ربطها من عنقها بحبل وطوَّحها من الشرفة، فيقول أن ولده لا يأكل إلا قليلًا، ولا يجوع، ولا يشتهي الحلوى، ولا يحب اللعب ككل الأطفال، لا يجري، ولا

يتكلم، يقضي يومه هكذا، بصمت وشرود غريبين، ويظل ينسج الحكايات الغريبة، التي تشكِّكه ـ هو نفسه ـ في مدى حقيقتها، حتى في الحضانة، يقولون أنه عاجز عن صنع صداقات مع أقرانه، ولا يحب مما يتعلَّمه سوى الرسم، يترك المراجيح ليقعد جنب بيانو خرِب لا يُصدر صوتًا، ورغم ذلك يُصر على أنه يسمع منه موسيقى جميلة، والأدهى، أنه ينتحي في أحد الأركان، فجأةً، ويبكي بلا سبب، آخر مرة قالت له مديرة الحضانة:

ـ بصراحة... ابنك غبي وبليد!

راحت زكية تمصمص شفتيها بحسرة، وتتكلم بالأمثال، كما تفعل في العادة، عندما يخونها التعبير...

ـ اللي بلا أم... حاله يغم.

وقالت له: «تزوَّج».

فقال بحِدَّة: «أبدًا... لا يمكن».

ومنبع هذه الحِدَّة، في اللا يمكن، والـ أبدًا، اللذين نطق بهما الدكتور دميان، لا يكمن في الوفاء للزوجة الراحلة، إنما في الخوف من الزوجة القادمة، فالدكتور دميان كبندول الساعة، يتحرَّك في خطوات ثابتة، وبلا مفاجآت متوقَّعة، وبصورة أوضح، هو رجل لا يُقاوم الدنيا، ويكره أن يتحداها،

حتى زواجه كان أمرًا مُبيَّتًا، منذ أن كان جنينًا في بطن أمه، في الوقت الذي كانت فيه زوجته الافتراضية، جنينًا أيضًا في بطن أمها، التي هي عمته.

المفاجأة الوحيدة التي اقترفها، كانت موته، بصورة دراماتيكية، وفي واحدة من رحلات الكنيسة الصيفية، وداخل إحدى المغارات، فوق قِمَّة جبل عالٍ يُشرف على البحر الأحمر، كان يعيش فيه واحد من رهبان القرن الرابع، مات فجأةً، في محلَّة القدِّيس، فطعن بموته فرحة الرحلة التي عادت فورًا بشارات الحِداد.

أهو قديس؟

عندما يطرح حنًّا على نفسه هذا السؤال، كان يُجيب بنظرة لا إرادية، فوجهه يتحرك رغمًا عنه، ناحيةَ الشرفة، حيث كان الدكتور دميان يقعد على كرسيه الهزاز، شابكًا يديه على ركبتيه في ارتخاء، يتأمل السكون الأحمر، الذي يغمر النيل عند الغروب.

لم يُخرجه من ذكريات الشرفة، إلا وصول الباخرة، كبقرة خرافية سابحة في النيل، رآها حنًّا تقترب من المرسَى، ومن وقفته وراء حافة الشرفة الدائرية، ميَّز بعض وجوه البحَّارة التي يعرفها، من فوقها وتحتها، وأمامها وخلفها، متأهبين

بحبالهم وأوتادهم، يشيرون لبعضهم بإشارات يعرفونها، ويصرخون أحيانًا بأصواتهم الطَّليقة، والباخرة في تلك أثناء لا تكف عن الصَّفير.

دوي هائل اعتادت أن تُطلقه عند وصولها لكل مرسًى، تزامن صفيرُها مع رنين الموبايل فوق الكوميدينو، فخمَّن حنًّا أنه منصور، واستدار متجهًا ناحيته، لكن مع تحرُّكه لمح شيئًا غريبًا، كان بين أكوام الكراكيب المغبرة، له لمعة واضحة باحمرارها القاني، تسمَّر مكانَه فجأةً، وانحنى ليلتقطـه بين أصابعه.

(2)

الموقف كله، بدا نوعًا من تلك الاكتشافات الغامضة، التي نرى فيها أنفسنا، بصورة لم نتوقَّعها عن أنفسنا، يحدث هذا ـ غالبًا ـ في إطار كافٍ من المهابة، تتناسب مع قداسة اللقاء وذواتنا الأخرى المجهولة، فحنًّا نفسه، لم يكن يتصور قطّ أنه، وبعد أن تجاوز الخامسة والثلاثين، سيندهش كل هذه الدهشة، التي شكَّ في شذوذها كثيراً، لمجرد رؤية قطعة صغيرة من ملابس النساء الداخلية، كيلوت صغير ليس إلا!

وجده بالصدفة في ذلك النهار، وأنه سيكون مأخوذًا به

على هذا النحو، الذي أيقظ منابت الشَّعر في جسده، وجعل ضربات قلبه تتسارع، وريقه يجف، وراح يرتجف، كما لو كان بصدد القيام بجريمة.

كان واقفًا في الشرفة، ينتظر ـ كما عرفنا ـ وصول الباخرة، وفي وقفته هذه يمكنه أن يرى صفحة النيل، ويمكنه أيضًا أن يرى الباخرة عندما ترسو، بعد نصف ساعة، أو أقل قليلًا، ولحظتَها راودتهُ رغباتٌ طفوليةٌ... أن يلوِّح مثلًا بيده لها من بعيد، وفكَّر أنهم، بلا شكَّ، سيحسدونه، على اعتبار أنه في إجازة، ليلة أمس، لم يُطق المبيت فيها، تركها في أسوان، وجاء في ميكروباص.

كان يحسُّ بأنه عصفور أُطلِقَ سراحُه، وقد كان محبوسًا في الباخرة فعلًا، هو وغيره، لم يتمكن من الخروج أو الدخول، لأنها كانت تستضيف فوجًا أمريكيًّا، والإجراءات الأمنية المشددة، عطَّلت كل الإجازات، ومنعت العاملين من الخروج، ولو لبعض الوقت، فالوضع كان متأزِّمًا، والأمريكان كانوا قد أخرجوا صدَّام لتوِّهم من جُحره، وحالة من الخوف الشديد سادت على رعاياهم في البلاد العربية، وعلى هذا، تأخَّرت إجازته المرتقبة شهرًا كاملًا.

وطبعًا تضايق، لدرجة تضخَّمت معها مشكلاته الصغيرة فجأةً، وصارت أكبر من كل تلك المهاترات التافهة، بوش

يبحث عن صدَّام، وصدَّام اختبأ كالفأر، والمخابرات تبحث عن مطلوبين، طبعوا صورهم على كوتشينة، فيلم كارتون، ناس فاضية وتافهة، ما دخله هو بكل هذا، فهو تعبان، وعمله في البار لا يرحم!

سأله المتر عاطف ساخرًا، في أول أيام عمله على الباخرة:

ـ ما دخل البار بالفلسفة؟

أجاب:

ـ لا أعرف.

فقال له المتر في جملة قاطعة:

ـ إذًا فلتنسَ ليسانس الفلسفة، وأنا سأجعل منك «بار مان» حقيقيًّا، أسدًا يقف وراء الكوانتر.

فردَّ حنًّا بحماسة شديدة:

ـ وأنا معك.

المتر عاطف كان ماهرًا فعلًا، لا يخطئ من يراه، ولو خارج نطاق العمل أنه، على الأقل، رئيس خدم في قصر لورد إنجليزي عريق، ويتذكَّر حنًّا، ببعض الفكاهة، أنه في بداية عمله بالبار، كاد يودي برئيسه المتر إلى حافة الجنون، ففي ذات مرة، وجدَه فوق رأسه وهو يصنع كوكتيل المارجريتا،

كان يهز رأسه بأسًى وهو يُراقبه، اضطرب حنًّا كعادته، عندما يحس أنَّ هناك عيونًا تُراقبه، تعثَّر، وامتلأت أظافره بعصير المانجو، وسقطت الشوكة على الأرض، التقطها المتر، رفعها ونظر إلى أسنانها قليلًا، ثم وضعها في حوض الكوانتر، وبصمتٍ أخذ السِّكين من يده، وأمسك ثمرة المانجو بحنان، كأنه يُمسك قطعةً من اللحم الحيِّ، ووضعها على سطح الكوانتر، وبدأ يُعمِل فيها السِّكين بسرعةٍ وآليةٍ، وفي أقل من دقيقة، كانت راقدةً على طبق صغير، شرائح متناسقة وشهيَّة، بلا قشرة أو نواة، ولم يُخلِّف قطرةً واحدةً على الكوانتر، أو على يده، كان مذهلًا، وبدا ببدلته السموكن وببيونه السوداء ساحرًا انتهى لتوِّه من عرض فقرته.

كان حنًّا يُمسك بالكيلوت في يده، عندما جاءه صوت منصور في الموبايل مترددًا:

ـ الدنيا كلها تراب.

ـ آه... تراب.

وسكت...

ـ رجعت؟

ـ آه... رجعت.

وسكت...

ـ ما لك؟

سكت قليلًا، ثم قال بدهشة:

ـ تصدق؟ لقيت كيلوت أحمر في البلكونة!

كان صغيراً جدًّا، بحيث إنه بالكاد ملأ راحة يده عندما فرده فوقَها، وهو يتأمَّله بدهشةٍ، ورهبةٍ، ويتحسَّس، بصورة أقرب إلى الوَجد، تلك النعومة الطاغية، التي من فرطها أحسَّ أنه لا يلمس شيئًا، رغم أنه مرَّره، أكثر من مرةٍ بين أصابعه، وكان قبلَها قد جرَّب أن يطويه، طيَّات كثيرة وصغيرة، حتى صار بإمكانه أن يدسَّه ـ لو أراد ـ داخل علبة سجائر، وهذا، في حدِّ ذاته، ما لا يحتمل التفكير فيه، إنه سِحر، والأدهى كان إحساسه اليقيني بأن هذا الموقف ما هو إلا رسالة نازلة من السماء.

الكيلوت، الأحمر الصغير، لم ينزل من السماء طبعًا، لكنه سقط من شُرفة الشقة التي تعلو شقته، حيث سكن فيها أخيراً مُدرِّس ومُدرِّسة حديثا الزواج، وحنًّا ليس غبيًّا حتى يتخيَّل غير ذلك، كما أنه أمرٌ واردٌ، ويحدث كثيراً، خصوصًا في أيام الخماسين هذه، التي يمكن لرياحها أن تُطير أيّ شيء لأيّ مكان.

خُيِّل إليه أنه يحلم، حيث ظلَّ قابعًا ـ لفترة ـ في المساحة الفاصلة بين الحُلم واليقظة، يحاول أن يُرمم الجدار القائم بين الوعي واللا وعي، حتى لا ينهار فيُجَنّ، ولكن، لم يمنعه ذلك من أن ينساب في حُلمه كالماء، حلم بأنه يسقط في بئر معتم، لا يبدو أن لعُمقه نهاية، ورغم ذلك بدا إحساسه مُفعمًا باللذة، أغمضَ عينيه، واسترخى تمامًا، كان يحسُّ بأنه يطير، وهو يتشكَّل بخفة في فضاء العتمة.

لم يكن خائفًا، لأنه يعرف أنه سيظل هكذا، ربما حتى يموت موته الطبيعي، لأن هناك سنوات طويلة تفصله عن الارتطام بقاع البئر، أو بالأدق، سيحدث هذا مع جثته، بعد أن يكون قد مات فعلًا، وهو يطير، وهذا لم يعنِ له شيئًا، لأنه لحظتَها لن يشعر بشيء، وستكون رُوحه واقفةً بشماتة عند فوهة البئر، تُراقب ارتطام الجثة، التي لا تعني شيئًا، بالقاع.

وهو يطير، هكذا، هابطًا بخفَّة، نحو القاع الذي لن يأتي، سمع زقزقات عصافير، كانت منفِّرة وغير منسجمة تمامًا مع الحلم، زقزقة آلية ومتكرِّرة بإلحاح غريب، لم تكن فيها رُوح، لدرجة جعلته يستفيق، ويفتح عينيه، لكن الزقزقة المنفِّرة لم تتوقَّف، بل ألحَّتْ وتكرَّرت، رغم خروجه لحيز الوعي فعلًا.

فكر... هل تهدَّم الجدار؟ إن الجنون يبدأ هكذا، عندما يختلط الحُلم باليقظة، فلا تتمكَّن من تمييز الوهم عن الحقيقة، لكنه ـ لسوء حظِّه ـ لم يُجَن في تلك اللحظة، بل احتاج وقتًا ليعرف أن الصوت المنفِّر، كان لجرس باب الشقَّة.

كان على الباب، جاره المُدرِّس، جاء يسأل:

ـ هل وقع شيء من شُرفتنا؟

سؤال صغير، وكلمات قليلة، هذا يكفي، فعندما بدأت الرياح تثور، والغبار بدا كشبحٍ همجيٍّ، يحجب الدنيا عن العيون، كانت المُدرِّسة، زوجته، في عملها، وكان القلق ينهش قلبها، فربما صار الغسيل ـ على الأقل ـ طينًا، هذا إن لم يطِر منه شيء، وذلك ما صدَمَها فعلًا، عندما اكتشفتْ غياب قطعتها الأثيرة.

ـ ما فيش حاجة وقعت من عندنا؟

ـ لا.

قال (لا) بسرعةٍ، لأنه لم يعرف ما الذي يجب عليه أن يقوله، مثلًا، هل كان من اللائق أن يقول (نعم)؟

«نعم... كيلوت المدام عندي فوق السرير، وكنت، منذ دقائق، أشبكه في إصبعي وأنا نائم!»

هذا لا يصح أبدًا...

بالأخص مع هذا الجار، المُرتاب دائمًا، الذي يقذفه بنظرات الشك، في صعوده ونزوله، على اعتبار أنه الأعزب الوحيد في العمارة، أو على اعتبار أنه يعمل في الخمور على بواخر السياحة والفجور.

حدجه المُدرِّس بنظرة اتِّهام طويلة، قبل أن يهمس: «شكرًا». وهو يستدير على عقبيه ويمشي غاضبًا.

(3)

هذه العمارة تغيَّرت، بالتدريج، هجرها السكان، وتعاقب عليها آخرون، لأنهم في الغالب مستأجِرون لا تربطهم بالعمارة إلا ورقة الإيجار، فلم يتبقَّ من طاقم السكان القدامى، ممن عاصروا كل عمرها تقريبًا، إلا حنًّا، وصاحبه القديم حسين.

35 حسين يسكن تحت شقة حنًّا مباشرةً، وله نفس العمر تقريبًا، ولذلك تزاملا في كل مراحل دراستهما. وإذا أضفنا العلاقة العائلية التي كانت متبادَلَة كجيران، يمكننا أن نتوقع أن يكونا صاحبين، ولقد كانا كذلك فعلًا، رغم أن أحدهما كان مُنطلقًا لحدّ الجنون، والآخر كان منطويًا لحدّ العته،

فهُما طرفا نقيض، إلا أن المرحلة الثانوية فرَّقت بينهما، حيث وقعت لحسين حادثة أقعدته عن المواصلة، ومع مرور الأيام تزوجت شقيقاته، ومات أبوه، فظل حسين وحده مع أمه العجوز.

36 ظل اسم العمارة القديم متداوَلًا ـ عمارة الخُبرا ـ حتى بعد رحيل هؤلاء الخبراء، منذ زمن طويل، كانوا أجانب استقدمتهم شركة السُّكر مع تأسيس المصنع الجديد في مطلع الستينات.

كان المصنع في البر الغربي للمدينة، الذي لم يكن سوى صحراء، وكانت العمارة في الجهة المقابلة من النيل، وبدأت المدينة، منذ ذلك التاريخ، تعرف قطار القصب، ذلك الذي يقطعها بقضبانه إلى نصفين، من الحقول شرقًا حتى المصنع غربًا، لكنه لم يكن مثل نظيره المُخصَّص للسفر، كان جرارُه صغيرًا وعرباته تبدو كعُلب الصَّفيح، يشحنها الفلاحون بالقصب في الشرق، فيهدر الجرار القديم نحو الغرب، ويمر في طريقه بالنيل فوق جسر صغير.

هنا، كان يلعب حسين، يتسلَّق عربات القطار الخطيرة، ويسرق عيدان القصب، كان طفلًا صاخبًا، بعكس حنًّا، الذي لم يكن يشاركه اللعب، بل يكتفي بالإنصات لحكاياته العجيبة، وبالأخص، عندما يكون موضوعها سعاد بنت

البواب، تلك الصبية الجميلة السمراء التي تكبرهما ببضع سنوات.

كان حنًّا يشُك ـ طبعًا ـ في صدق حكايات حسين عنها، وحسين ـ في المقابل ـ يرى نظرة الشَّك عند صاحبه، فيُسهب أكثر في الحكي، مكررًا ـ في كل مرة ـ تفاصيله الصغيرة...

ـ تحب تشوف بعينك؟

قال له ذات مرة بنبرة واثقة:

ـ النهارده هاتطلع سعاد معاي فوق السطوح.

وعلى سطح العمارة أشار حسين إلى ركن مظلم. «ستقف هنا» قال لحنًّا، «وسترى بأم عينيك، فأنا لا أكذب».

حنًّا كان خائفًا، يرتجف، وأمعائه تتقلص بألم فظيع، لدرجة أنه فكر في الانسحاب، لكنه عندما قرر أن يفعل ذلك، رأى سعاد طالعةً على السلم، فتراجع، بينما توقفت سعاد مترددةً عند آخر درجة، نظرت وراءها برهبةٍ، ثم مشت على أطراف أصابعها، كان حسين ينتظرها بجوار عشَّة الفراخ، وعندما رآها تقدَّم في خطوات سريعة، ثم أخذها من خصرها وقبَّلها، سرَت بينهما همهمات ضعيفة، تبيَّن حنًّا فيها أنها تصدُّه، ثم بقيا لحظةً جامدين، لا يتحركان، وجهًا لوجه، حدَّق كلٌّ منهما في الآخر، ثم، وكما لو باتفاق

صامت، تجرَّدا من ثيابهما، وانسكبا على الأرض، وانثنى بدن كلٍّ منهما في الآخر.

عند الجسر، يوقف السائق قطاره أحيانًا، عندما يتسلق الصبيان مؤخرات العربات، ثم يبدأ في مهاجمتهم بقصبة غليظة، وفي الغالب، كان حسين يقفز في النيل، ويعوم كسمكةٍ، كان ماهرًا في ذلك جدًّا، لكن، هذه المرة، عندما اندفع ليقفز، أمسك شيء ما بقدمه، فسقط، والتهم قطار القصب نصفَه، نصفه تقريبًا، حيث بُترت ساقاه الاثنتان، من فوق الركبة.

بعد عودته من عمله على الباخرة، في المرة التي فاتت، وبينما كان حنًّا ينزل السلم، في طريقه إلى منصور، كعادته، عندما يحصل على إجازة، رأى حسين جالسًا على كرسيِّه المتحرك، عند مدخل شقته، كانت أمه قد فتحت ضلفتي الباب، حتى تتمكَّن من إخراجه، وعندما رأت حنًّا نازلًا قالت بفرحةٍ:

- رجعت؟

وكأنَّ رؤيتها له، وهو ينزل على السلم، تحتاج إلى تأكيد!

- آه... رجعت.

أشارت إلى حسين وهي تُضيِّق من حدقتيها...

ـ طيب... نزِّله يصطاد.

كان حسين قاعدًا على كرسيِّه باستسلام، يُمسك بيده صنارة و«شنطة» قماشيّة وعُلبة صغيرة، ويضع على وجهه تكشيرة، لكنه كان صامتًا وممتثلًا تمامًا للحركة المفاجئة التي بدرت من أمه، حيث أدارت الكرسيَّ مرةً واحدةً، ووجَّهت مقبضه ناحية حنًّا.

ـ خُد.

فأخذ، لكنه ما إن أمسك بمقبضي الكرسي، إلا ووجد نفسه يفكِّر... ماذا ينبغي أن يقول في هذا الموقف! كان في داخله ينهار من الخجل، ويحاول أن يعتصر عقلَه بحثًا عن دُعابة، أيّ دعابة، ضحكة، كلمة، نكتة، شيء ما يقتل هذا الصَّمت الثقيل، لكنه لم يجد، فظلَّ صامتًا.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يدفع فيها مقعدًا متحركًا، حاول توجيهَه ناحيةَ السلم، لكنه تعثَّر، خانته العجلات، فقد كانت تتحرك بصورة مستفزة، مما دفع حسين إلى أن يوجِّهه...

ـ انزل بضهرك.

ففعل، ورأى أن ذلك أفضل. قال حسين شيئًا لم يسمعه، فقال حنَّا: إيه؟ وفي الوقت نفسه راح يتابع خطواته الخلفية المضطربة، ردَّد حسين وهو يُشير إلى درجات السلم...

ـ السلم بس، على الأرض ممكن أساعد نفسي، وحدي.

أمام النيل، وقف حنَّا بجواره صامتًا، كان حسين يُلقي بصنارته، وقال دون أن يحوِّل وجهه:

ـ قلت لأمي عاوز أصطاد.

وابتسم بمرارةٍ...

ـ قالت حيلي مهدود.

لم يجد حنَّا ما يقوله، فظلَّ صامتًا، وكان صمته هذا يضايقه جدًّا، لكن... ماذا يقول؟ كان يفكر في صياغة جملة يقولها، عندما تكلَّم حسين أيضًا، كأنه يُناجي نفسَه.

ـ راحِت فتحِت التليفزيون.

ثم حوَّل وجهَه ناحيةَ حنَّا وهو يشرح بيديه ماذا فعلت أمه بعد تشغيل التليفزيون...

ـ جرِّتني بالكرسي قدَّامه.

ثم ضحك...

ـ قالت اتفرج على المسلسل أحسن... بلا صيد بلا كلام فارغ!

وراح يضحك...

ثم بدأ ضحكه يعلو، وتحوَّل إلى صورة هستيرية صاخبة، حتى إنه بدا في شكل أقرب إلى البكاء، أو الصراخ، مما جعل العيون تنظر ناحيتهما، فشعر حنًّا بالخجل، وبدأ أيضًا يخاف، ودفعَه خوفُه إلى أن يستدير ببطء... ويمشي.

هذه المرة، وهو نازل، لم يصادف حسين، ولا أمه، سمع صوتهما فقط من وراء باب الشقة المغلق، كانا يتشاجران...

حسين يزعق في غضب:

ـ قُلت نازل يعني نازل.

وأمه ترد مستنكرةً:

ـ تنزل فين؟ الدنيا كلها تراب.

فيرد على استنكارها بغضب:

ـ يا قحبة... يا شرموطة!

ويكيل لها الشتائم، بصورة سريعة ومتوتِّرة، قبل أن يقذفها بالمزهرية، هكذا خمَّن حنًّا، لأنه سمع صوت زجاج

يتكسَّر وهو يقف جنب باب الشقة يتنصَّت.

فجأةً تخيَّل أن «الفازة» الزجاجية تقصد رأسَه، هو نفسه، وبحركة لا إرادية، وضع كفَّيه فوق رأسه ليحميها، ثم نزل على السلالم جريًا، وعند آخر درجات السلم تعثَّر، التوى كاحله، فسقط على وجهه. كان خائفًا وقلبُه ينبض بدقَّات عنيفة، لم يكن سقوطه خطيراً، إذ كان بإمكانه أن يقوم واقفًا مرةً أخرى، حدث ذلك أمام غرفة البواب، حيث كانت سعاد جالسةً على كنبة بجوار الباب، كعادتها، حينما تأتي لزيارة والدها.

كانت قد تزوجت وزاد وزنها، ترقُد كبطةٍ مستكينة، بينما يلعب صغارها في الشارع، بشرطٍ صارم، ألَّا يقتربوا من قطار القصب.

صاحت:

ـ اسم الله عليك!

وحاولت التغلُّب على وزنها لتقوم، فلم يكترث حنًّا لِلَهفَتِها، كان يشعر بالخجل، مما دفعه لأن يعتدل بسرعة، ودون أن يفكر في تسوية ملابسه، مرق من باب العمارة كَسَهْمٍ.

حدث ذلك، في الساعة الخامسة، حيث هدأت الرياح

كثيراً، والغبار كان في سبيله إلى السكون، وظهرت الشمس من جديد، قريبةً، وحمراء، تختفي ببطء وراء جبال البر الغربي، مما جعل شارع الكورنيش يمتلئ بالناس، فالمقاهي فتحت أبوابها، وانهمك صبيانها في رش الماء تحت الكراسي.

كان حنًّا يمشي بعرجٍ خفيف، يتحيَّن فرصة بلوغه لرصيف مبنى مجلس المدينة، حتى يكشف عن كاحله المُصاب، خمَّن أنه تورَّم، لأنه كان يشعر بألم رهيب، ويشعر كذلك بالضيق من نفسه، لأنه تجرَّأ وتنصت على شقة جاره، وقبلها أيضًا كذب على جاره الآخر.

قال: لم يقع في شُرفتي شيء، بينما كان الكيلوت الأحمر على سريره، وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا، أنه بدأ ينحدر للأسوأ! وعندما فكَّر في ذلك كره نفسه، وودَّ لو تمكَّن من مُعاقبتها، فارتاح لفكرة التواء كاحله، وسقوطه، وحسب أن ذلك جزاء عادل، مما جعله يعرج بصورة أشدّ، ويحس بالألم أكثر.

في الجهة المقابلة، عند سياج المرسَى، كانت سيدة منتقبة تسير بالتوازي معه، اسمها صفية، ومن موضعها، عند سياج المرسَى، لاحظت عرجه، ولاحظت كذلك تعبيرات الألم التي تكوَّنت على وجهه، عندما كشف عن ساقه على الرصيف، أنزلَ جوربَه قليلًا ليتحسَّس مكان الوجع، فاكتشف أن

كاحله ـ فعلًا ـ متورِّم.

صفية كانت تعرفه، رأته ـ أكثر من مرة ـ في دكان منصور، ولا يعني ذلك أن حنًّا كان يعرفها، ربما يكون قد رآها من قبل، ولكن، أن ترى منتقبة، فكأنك لا تراها، خصوصًا، لو لم تتبادل معها الكلام.

وكما قلنا، حنًّا لا يحمل أيَّ مواقف، تجاه هذه النوعية من الملابس، لكنه بدأ يلاحظ ـ مثل غيره ـ انتشارها بصورة كبيرة في المدينة، ورغم أنه لا يهتم بمثل هذه الأمور، إلا أنه كان يتضايق إذا تصادف وجلس بجانب واحدة منهنَّ في الميكروباص، يشعر طوال الطريق أنه مُتهم، فيتخشَّب في جلسته، كما لو كان جذع شجرة، فواحدة لا تحب أن يراها الرجال، لا بُد أنها تخشى ـ بالقطع ـ أن يلمسوها.

لا نعرف، على وجه التحديد، لماذا كانت صفية تتمشَّى في شارع الكورنيش، لكننا على يقين أن رؤيتها لحنًّا كانت صدفة، حيث يتكرر هذا النوع من المصادفات كثيراً في المدن الصغيرة، فرؤية الشخص نفسه في اليوم الواحد عدة مرات أمر طبيعي.

وكل ما نعرفه أن صفية لن تذهب إلى منصور مباشرةً، بل ستقضي بعض المشاوير التي تخصها، مما يُتيح لحنًّا أن يصل

قبلَها، رغم أنها أوشكت ـ الآن ـ أن تسبقه، وبدأت بالفعل تتجه يسارًا، عند ناحية شارع المعبد، بينما يمشي هو بعرجِه المؤلم.

المدينة في يوم الغبار

(1)

هنا...

في مواجهة الميدان، يقع دكان منصور، لكنه يميل قليلًا ناحيةَ شارع السوق، حيث تنبعث رائحة نتن الخضار الفاسد، وتختلط برائحة روث البهائم الرابضة عند النافورة، لكن النافورة ـ نفسها ـ جميلة، لها شكل سمكة، تلمع تحت الشمس بلون الفضة، وهي أيضًا قديمة، جاءت كمنحةٍ من مؤسسة أجنبية، لعلها كندية، بشرط وضعها في الميدان المُفضي إلى المعبد القديم، ومن يومها، تغيَّر اسم الميدان، فلم يعُد ميدان السوق، بل ميدان النافورة، وأحيانًا ميدان السمكة.

الغريب، أو الذي لا يعرفه الكثيرون، أن هذا الميدان، المعروف بالنافورة، يُطلَق عليه في سجلات الدولة ميدان النهضة، وكان مجرد ساحة واسعة لبيع الخضار، لكنه، ومع قدوم النافورة، تحول إلى موقف لعربات الكارو والحنطور، وكل جمعة، يُنصَب حولَه سوق للبهائم، كنوع من الاستفادة بموقعه في وسط المدينة.

بالإضافة إلى أن الماء الذي توفَّر بوجود النافورة (بِركة مُستديرة تقفز السمكة الفضية برشاقة فوقها) لعب دورًا مؤثرًا، لأن الماء ضرورة، فهو كل شيء، خصوصًا وأن القيظ في المدينة رهيب.

ففي ظهيرة أيام الصيف تتوهَّج الشمس بصورة مذهلة، وتنطلق بنيرانها، لتُعربد على الأرض، وتلسع بسخونة سياطها الأبدان، وفي الأفق تتجمَّع أشعّتُها لتصنع بُحيرة وهمية لامعة، تتموَّج وسط دوَّامات الصَّهد السابحة فوق النافورة، وتفوح في الجو روائح النتن ممتزجةً برائحة القار المنصهر، فالإسفلت يذوب، تُنقَش فوقه حوافر البهائم ونعال الأحذية، ويصير ليِّنًا تحت أقدام العابرين، وتصير النافورة ملاذًا.

ففي هذا الجحيم، ومن حين لآخر، يمكنك أن تلمح رجلًا يقفز حجلًا فوق جمر الإسفلت، يعبئ الدلو من بِركة النافورة، ويدلقه فوق رأس بهيمته، ويكون ـ وقتَها ـ ميدان

النافورة خاليًا، ربما ـ وحتى يكتمل المشهد ـ ستلمح عربة كارو وحيدة، شاردة بلا سائق، يطأطئ بغلُها الهزيل رأسه، ويمشي بخمول.

لكن، يومنا، لم يكن على هذه الصورة، كنا في الربيع، وربيع المدينة ـ دائمًا ـ ما يأتي هكذا...

يشتد الحر، وتثور الرياح، جافة وحارة، ويثور معها التراب، غبار كثيف، يحجب قرصَ الشمس خلفَه، إلا أن صباح يومنا كان مقبولًا، لولا تلك الرياح هاجت فجأة عند الظهيرة، وملأت الدنيا كلها بالتراب، وطيَّرت كل شيء، حتى لافتة الحاج حكيم المُعلَّقة على زعنفة السمكة.

منصور، القاعد قدام الدكان، كان يتسلَّى بمراقبتها وهي تدافع عن وجودها بحركات ماجنة، تنطوي، تنبسط، وتتراقص، تُخفي الكلمات المطبوعة عليها، ثم تعود فتُظهرها من جديد... ابنكم... البارّ... انتخبوا، وتهتز، تهتز بقوة، وترفرف، وفي دفقة باهظة من الغبار، أفلتت من السمكة، وطارت!

فرك منصور عينيه، ودخل، وضع كرسيَّه قدام التليفزيون، وفكَّر أن الرياح ربما أفسدت الوصلة، كانت القنوات مشوَّشة قليلًا، والدكان كله تراب، على الأرض، والأرفف، والفتارين، ورغم ذلك كان منصور سعيدًا، خصوصًا حينما تأكَّد أن

مجلس المدينة ـ حمايةً للسائحين ـ قرر أن يوقف الحناطير، وخصَّص ـ كبديلٍ ـ أتوبيسين كبيرين لنقلهم، كان يمر كل واحد منهما قدَّام الدكان، ثم يرجع لينقل آخرين، من الكورنيش إلى المعبد، والعكس، وذلك ـ بالضبط ـ ما تمنَّاه، وها هي الظروف، كل الظروف، تخدم مقاصده الخبيثة، التي لا تستحق بساطتُها أن يتمنَّى الأهوال للمدينة، حيث هز رأسه ساخرًا وقال «تبقَّى أن ننتظر الصاعقة، لعلها تنزل من السماء وتقضي على الجميع، بألف داهية» ثم ضحك، إذ تخيَّل أن ذلك يحدث فعلًا، وفكَّر في درجة التواطؤ التي من الممكن أن يمنحها له الكون، إذا ما فكر في اصطياد فتاة، آه، هذا هو كل ما يتمنَّاه، فهل يستحق ذلك أن تُسحَق المدينة بصاعقة؟

المدينة صغيرة، لا تتجاوز شوارعها عدد أصابع اليد الواحدة، تنتهي، أو تبدأ، بشوارع أضيق، يكفي اتساعها ـ بالكاد ـ لثلاثة أفراد، ولكل شارع اسم، اسم مجهول، لا يعرفه أحد، 6 أكتوبر، الجمهورية، 26 يوليو، وهكذا، الشارع الوحيد المُدوَّن في سجلات الدولة بما يوجد فيه فعلًا هو شارع كورنيش النيل، ورغم ذلك، فالناس يُطلقون عليه شارع البحر، وهذا تحديدًا، أجمل شوارعها، حيث لا يبعث على النوم، مثل باقي الشوارع التي لا يمكن مواجهتها إلا بذلك، فلا مكان، في الواقع، يمكنك أن ترتاده، غير عملك

والبيت، وربما المسجد أو الكنيسة، وفي أكثر الأحوال احتفالًا، ستذهب إلى مقهى، وذلك يقتصر على الرجال، ولأن طبيعة الأعمال المتوفِّرة في المدينة، لا تُتيح الانشغال إلا لساعات قليلة، يحار المرء بعدها، فماذا يفعل!

خصوصًا إذ لم تكن لديه عادات مُعينة، مما يدفعه إلى النوم، أو الجلوس في الشرفات، أو على عتبات البيوت، مع ترفيه متكرر يبثه التليفزيون أو الراديو، مثلما يحدث في أمسيات الصيف، حيث تتحول المدينة إلى سلسلة لا نهائية من العيون، فوق وتحت، يمينًا ويسارًا، في المواجهة، وخلف الظهر، عيون كالكاميرات، تلتقط أي شيء، وكل شيء، فتشعر وأنت تمشي، كأنك مُراقَب، وتصير كل بادرة تصدر عنك مادةً لحوارات مُستفيضة، لا تكتفي بمراجعة أحداث حياتك، بل تتطرَّق إلى تاريخ أجدادك أيضًا، كما لو كان ـ كل شيء ـ مكتوبًا في سجلات خفية.

في تلك الظروف، يصير الجميع حرَّاسًا للفضيلة، والويل لمن يحاول التمرُّد على الملل، لا حُبًّا للفضيلة، أو الملل، إنما لأن التمرُّد سيكون بقرار منفرد، مما يُعد ظلمًا للبؤس الذي يعيش فيه الآخرون، مثلما قرر منصور ـ الخبيث ـ أن يفعل، في هذا اليوم الأغبر الذي لم تظهر له شمس، متجاوزًا كل الحدود، كاسرًا كل الأعراف، ومتخيِّلًا أن بإمكانه الانفراد

بفتاة، دون أن تلتقطه الكاميرات.

هناك، عند البحر، أو النيل، كان يقف كل أتوبيس بصورة قريبة جدًّا من آخر درجات سلم المرسَى، فيخرج السائحون من بواخرهم جريًا، وهم يتفادون بكل ما في أياديهم التراب، وكان شارع الكورنيش خاليًا، ولم تكن ـ تلك ـ هي حالته، ففي العادة، ومع قدوم كل باخرة جديدة، كان لا يعدم هرولة المتحفِّزين ناحيتها، خليط غير متجانس من البشر، متسولون، عربجيَّة، خرتيَّة، فضلًا عن بائعي العاديات وتُجار العُملة والعساكر.

منصور، كان يُحصي مرات مرور كل أتوبيس، يقول: واحد، اثنان، ثلاثة، ويرسم على الكراسة التي يدوِّن فيها حسابات الدكان، بورتريهات صغيرة لوجوه غاضبة، ومن حين لآخر، يُلقي نظرةً سريعةً ناحية شارع الكورنيش، وأحيانًا، يخطِّط خطوطًا بلا معنى، كتب بقلمه الأزرق (حنًّا) وكتب أيضًا (صفيَّة) وصنع بينهما خطًّا مستقيمًا، ثم كتب (شقَّة) وأحاطها - هذه الكلمة بالذات - بدائرة ودائرة، ثم وضع تحتَها عدة خطوط.

بَدَهِيّ، إنه كان يفكِّر، لكن بطريقته، فهو من هذا النوع الذي لو أعطيتَه قلمًا، وهو يفكِّر، فإنه سيملأ لك الدنيا رسمًا وتخطيطًا، بحيث يمكنك أن ترى عقله، بالكامل، مُفتتًا على

الورق، ففي تلك اللحظة اللا شعورية من التفكير، لم يخطّ منصور، بنفسه، هذه الخطوط، إنما فعلها منصور الآخر، القابع في العمق، وراء طبقات وطبقات من الزيف المرتَّب، ولذلك، كانت هذه الطريقة تعجب حنًّا، الذي كان اللا وعي ـ هو الآخر ـ يُمرر له القصص عبر الأحلام، ويرى أن التفكير بهذه الصورة هو أصل الإبداع، وما دونه ليس إلا نوعًا من الترتيب، أو التنميق.

فالأصل الحقيقي للفِكر هو صورته الأخرى، النيجاتيف السالب، الذي يُشبه المادة الخام في الطبيعة، لها صورة واحدة في كل الأحوال، لا تفنى، ولا تُستحدث من العدم، حيث يقتصر إبداعنا على استخراجها، أولًا، ثم ترتيب ظهورها بأشكال مختلفة، فكما تتحول الحرارة إلى ضوء، تتحول الشهوات إلى فضائل، وكما تتحول الحركة إلى كهرباء، يتحول الجنون إلى إبداع.

تلك الأمور الخطيرة، لا يفهمها منصور، الذي تحول، بدوره، إلى جمرة مُتقدة، ظلت تتوهَّج في ذلك اليوم الأغبر، للحد الذي جعل «سلوم» صبي المقهى يعلِّق:

ـ وشك مولَّع زيّ حَجَر الشيشة.

ولم يفهم منصور أنه أحمر فعلًا، وأن صبي المقهى لا يقصد

بكلامه العينين، ولا يحمل إسقاطًا على لفافات الحشيش ـ الوفيرة ـ التي دخَّنها منصور منذ الصباح، كما تخيَّل، ففتح خرطوم شتائمه القذرة «امشي يا بن المرة الوسخة» وهمَّ بقذف صينية الشاي في وجه الصبي المسكين، أو ادَّعَى أنه بصدد فِعل ذلك، لأن الصبي تبخَّر فجأة، طار، بينما منصور يتساءل: كيف تمكَّن من أن يكشفني؟

لم يكشفه سلوم وحده، بل كشفه حنَّا ـ أيضًا ـ حينما جاء، وكان منصور قد حاول أن يفاتحه في الأمر، عندما اتصل به، لكنه اكتفى بالثرثرة عن حالة الجو، لأنه يعرف طبيعة صاحبه المحافظة، هذا الذي يعمل بار مان، دون أن يجرِّب، ولو مرةً، شُرب الخمر.

حنَّا الذي يبدو كالمعتوه، أو كمن وُلِدوا بقصور في التعاطي مع الدنيا، إلا أن منصور، عندما اقترب منه، وجد أنه أجدر الناس، في الحقيقة، بفهم الدنيا، الولد يكتب القصص، ويقرأ، يقرأ كثيرًا جدًّا. إن العيب ليس فيه، بل في الدنيا، لكنه، رغم بؤسه، يصل لأبعد حدودها، متوغلًا في كل أسرارها، عبقري حنَّا، بدرجة يتصور معها أنه يتنبأ.

يتنبأ؟!

ليس بالضبط، هذا مُبالَغ فيه، إنما المقصود أنه يعرف

ما يدور بالعقول قبل أن تنطق به الألسن، فحينما جاء حنَّا إلى الدكان، وقبل كل شيء، أمسك، دونَ اتفاق، بكراسة الحسابات التي وجدَها أمامَه، وبغير أن يعي تمامًا معنى تلك الطلاسم المُبهَمة، التي نكشها منصور، حرَّك سبَّابته فوق الخطوط التي تبدو كخريطة، تأمَّل الرسوم، وقرأ الكلمات.

وبينما هو يفعل، بدأ وجهه، بالتدريج، يتلوَّن بالأحمر، لا كما تلوَّن منصور الذي كان يتَّقد منذ قليل، بل باحمرار مختلف، لا يُعبِّر عن الاشتعال، بقدر ما يشي بالتوهُّج، أو بتعبير أدق، التورُّد.

حيث بدأ الدم يتدفق تحت جلد الوجه مباشرةً، بعد أن تلقَّت مستقبلات بيتا الأدرناليَّة أمرًا من الجهاز العصبي السمبثاوي بتوسعة الأوعية الدموية، وتدفُّق أكثر فأكثر، فتوهَّج حنَّا، أكثر فأكثر، وفي المقابل، كان منصور يُراقبه، وهو يشعر بتسرُّب البرودة إلى أطرافه، فالجمرة المُتقدة بدأت تنطفئ، وبدأ اللون الأحمر ينسحب منه بالتدريج، كأنما كان يتنازل عنه لحنَّا، واتخذ لنفسه لونًا جديدًا... الأبيض.

ـ أنا اتجمدت... فووو... برد!

احتضن منصور نفسه وهو يرتجف، إلا أن حنَّا تكلم فأذاب بعض الخجل.

ـ لو عاوز الشقة... خدها.

ثم وضع الكراسة جانبًا وسأله بخبث:

ـ لكن... مين هي صفية؟

(2)

في الحقيقة، لم يكن حنًّا قد عرف امرأةً قَطّ، ففي كل حياته تقريبًا، لم يتكلم ـ حتى ـ مع واحدة، إلا وردة، زميلته في الجامعة، زماان، قبل عشر سنوات مضت، كانت تكبره بخمسة أعوام.

رغم أنهما التحقا بكلية الآداب في نفس السنة، لم تكن جميلةً بالقدر الذي يلفت الأنظار إليها، تبدو نحيفةً داخل فساتينها التي تكسوها بالكامل، وتختار طرحة الحجاب دائمًا بنفس ألوانها، تمشي بخطوات ثابتة وسريعة، وهي مُنكَّسة الرأس، كأنها تُراقب حذاءَها الكوتشي الذي لا يُصدر صوتًا،

ولذلك فهي ـ دائمًا ـ تُباغتك بوجودها، دون أيّ مقدمات، وجدها حنًّا فوق رأسه، فجأةً، وهو قاعد يومًا تحت جذع شجرة في الجامعة، كان يقرأ في رواية «اللص والكلاب» فسمع صوتها فوقه يسأل:

ـ رواية حلوة؟

نظر إلى غلاف الرواية، وإلى عنوانها، وكأنه يراها لأول مرة، ثم قال:

ـ حلوة.

اعتبرت وردة تلك الكلمة بمثابة دعوة، فقعدت بجانبه على الأرض، ثنت ساقيها تحتها، وفردت فستانها الواسع على النجيلة، ثم سألته لماذا هو انطوائي بهذه الصورة، ولماذا لم يتخذ له أصحابًا، فأجابها حنًّا ببساطة:

ـ كدا أحسن.

فضحكت، وقالت في محاولةٍ منها لدفعه إلى الكلام، أنه ربما مصدوم بقصة حب فاشلة، أو بصديق خائن.

فقال وهو يتحاشى النظر إلى عينيها:

ـ لا.

ـ إذًا لماذا لا تتكلم كثيراً؟

سألته، فقال أنه لا يجد كلامًا يقوله.

كان يشعر أن الملل قد بدأ يتسلل إلى عينيها، وخمَّن أن ردوده المقتضبة أحزنتها، أو جعلتها تشعر بالحرج، ربما ندمت لأنها كلَّمته من الأصل، وأحسَّت أنها تفرض نفسها عليه، فأراد أن يفعل أيَّ شيء ليبدو ظريفًا، حتى لا يخذلها، لأنه شعر ناحيتها بالامتنان، ووجد قدرًا من المتعة وهي تمارس استبطانها لداخله، وفرح لأنها وضعته في محور اهتمامها، والناس في العادة لا يفعلون ذلك، ليس لديهم وقت، هم فقط يسألون عن أحوالك بالقدر الذي يطمئنون به على أحوالهم.

لكن وردة بدت مختلفةً، أسئلتها المتكررة كانت تعني في ذهنه سؤالًا واحدًا «هل يمكنني أن أساعدك؟» وهو يحتاجها فعلًا، رغم أنه لا يعرفها، وهي، في المقابل، لا تعرفه، لكن سكوته المتكرر، منحها نفوذًا واسعًا، جعلها تستبدل النظرة البريئة بنظرة انتصار واثقة، فسمع حنًّا في نبرتها بعض السُّخرية...

ـ الظاهر إنك مكسوف!

لماذا ينبغي أن نرد ـ دائمًا ـ على الذين يكلموننا؟

ولماذا يجب على الناس أن تتكلم كثيراً؟ فالكلام، في حد ذاته، لا يعني شيئًا، ولا ينبغي أن نردِّده دائمًا، حتى لا نُفسد معانيه، وتصير، من فرط قولنا لها، عادية جدًّا، وتافهة جدًّا.

ازيك، عامل إيه، فينك من الدنيا، وإيه أخبارك، أهلًا وسهلًا...

لوكلك... لوكلك... لوكلك!

حاجة تقرف!

والمشكلة الحقيقية أنه ولا واحد ممن يرددون هذه الكلمات يقصد معناها الحقيقي، فعلًا مجرد لغو فارغ تلوكه الألسن، وحنًّا يحتاج لآلية تسامر غبيَّة، حتى يحكي لهذه البنت، التي لا يعرفها، ما يُبهجها، وبما أنهما في السنة الأولى بالجامعة، سيُكلمها مثلًا عن سبب اختياره لتلك الكلية، ويقول أنه يحب الدراسة فيها، كما يقول الطلبة، في العادة، وسيقول أنه سيُحب - فيما بعد - وظيفته أيضًا، كلية مرموقة، ووظيفة محترمة، وزوجة صالحة، وأولاد حلوين، وتعرِّفه هي، في المقابل، على أحلامها، فمن المهم أن نتعرَّف على أحلام الآخرين...

كلام فارغ، ليس له معنى، مجرد هراء!

زعق فيها بحِدَّة وغضب وهو يلوِّح بيده في الهواء...

ـ مش عاوز أتكلم... معنديش كلام.

قالت في هدوء:

ـ أنا آسفة.

وعادت لعينيها النظرة المنكسرة، ثم قامت من جانبه وهي تهمس:

ـ بعد إذنك... مضطرة أمشي.

هز رأسه، وهو لا يقصد بذلك شيئًا، مجرد هزَّة رأس، سمع بعدها حفيف فستانها الفضفاض الذي علقت به بعض الحشائش أثناء نهوضها، وتأملها وهي تبتعد بنفس خطواتها السريعة الثابتة، كانت منكَّسة الرأس، وخجولة، فبدون شك، اعتقدت أنه أهانها، وربما أحسَّت أنه مجنون.

وجد حنًّا ـ في اليوم التالي ـ أنه من اللائق أن يعتذر لها، قال أنه كان متضايقًا، وحزينًا، واضطر أن يؤلف قصة حارقة، حتى تتعاطف مع ضيقه وتُسامحه، قال أن له عمًّا يُحبه مات، هذا ما خطر له يومَها، فتأسَّفت هي بشدة، وبدأت تُواسيه بكلمات باردة، ليس لها معنى أيضًا.

وفيما بعد، عرف إنها تعمل في صيدلية، بجانب دراستها،

وأنها تكتب قصصًا غارقة في الوعظ الديني، كانت حريصة، في كل مرة، أن تشرحها، وتجرّه جرًّا للكلام في الدين، وهو لا يحب ذلك، لأنه لم يفكِّر مُطلقًا في الدين كمشروع للحياة، وعلاقته ظلَّت بدائية وبسيطة مع الله، ربما منذ الطفولة، فهو أبانا الذي في السموات، الذي ينفذ مشيئته، تلك التي لا نملك معها، إلا أن نشكره، على كل حال، وفي كل حال، ومن أجل كل حال.

ولكن وردة راحت تكلِّمه عن أمور جديدة، لم تشغل باله يومًا، واعتبرها خارجةً عن نطاق اهتماماته، المحدودة أصلًا، مثل أحكام النظر بشهوة إلى النساء، وسُبل إقامة المجتمعات الأخلاقية القويمة، وجدوى قطع كفوف السارقين وجلد الزُّناة ورجمهم بالحجارة، كانت تتكلم وهي تُشير نحوه بإصبعها قائلةً «أنتم» وتُشير إلى نفسها قائلةً «إحنا».

فعرف أنهما مختلفان...

ذات مرة، وجد نفسه مدفوعًا للبَوح، ولأن النفس أمَّارة بالسوء، أمرته نفسُه أن يتكلَّم، فبدأ يحكي عن ذلك الإحساس الذي يشعر به دومًا، قال أنه يشعر كما لو كان مُكلَّفًا بأمرٍ عظيم، هدف سامٍ، رسالة مثلًا، لا بُد أن يحملها إلى الناس، لا يعرف مضمون الرسالة بدقَّة، غير أن هدفها الواضح هو

تصحيح خطأ ما قامت عليه هذه الدنيا، بالتحديد، يشعر أنه نبي.

انتفضت وردة كالملسوعة وصرخت:

- حرام!

قال أنه مجرد شعور، لا يعني به شيئًا، وحكى لها عن الجنة التي رآها، محمولًا على أجنحة ملائكة صغيرة وحلوة، وقال أنه يشعر أن هناك واجبًا نحو هذه الجنة، تلك التي يشعر بها قريبةً منه، لكنها لأسباب تافهة مُحتجبة عن العيون.

كانت وردة ترمُقه بنظرات ساخرة، جعلته يسكت، ويندم، فهذا السر لم يبُح به لأحد، حتى أوشك، هو نفسه، أن ينساه، وهذا ما جعله يفرح لأنها لم تصدِّقه، وراح - كالأبله - يضحك مع ضحكها، ليؤكد لها أنه يهرّج، وكرر القصة من جديد، بصورة ساخرة، مشفوعةً بحركات هازئة من يديه، كأنه يمثِّل كيف حملته الملائكة وطارت، ومرَّ الأمر على أنها نكتة، ولم يعد يفتح هذا الكلام بعدها أبدًا.

الأسد وحكاية الثعبان الأليف

(1)

ـ عشان عقلك مش فيك!

قال منصور، يعزو عرج صاحبه إلى الشرود، فتذكَّر حنًّا أنه حكى لمنصور عن شروده، الشرود الذي صار يُدخله في غياب قهريّ، أو في حالة أشبه ما تكون بفقدان للذاكرة، تجعله في لحظة فجائية يسأل نفسه:

أين أنا! أو من أنا!

وهذه ليست أسئلة فلسفية للبحث عن الذات، بل واقع ملموس من التوهان الحقيقي، في الغالب، كان يدخله عندما يصحو من النوم، يرقد ـ في كل مرة ـ قُرابة الساعة

على السرير، ويعتصر ذهنَه، لعله، في النهاية، يكتشف طلاسم المكان الذي وجد نفسه فيه، يتأمل السقف والأثاث وصورته في المرآة، ويقوم متخبِّطًا كالسكران، يبحث عن باب للكابينة المُصمتة الواطئة الواقعة في قعر الباخرة، يختنق من الرائحة الراكدة، ويسعل بكل قوته، عسى أن يسمعه أحدهم فيأتي ليثبِّت ذاكرته مكانها، يبحث خلفَ الستائر عن نسمة هواء، فلا يجد إلا نافذة دائرية تغمرها المياه، والناحية الأخرى كذلك، نافذة أخرى مُصمتة تغمرها المياه، فيشعر أنه محبوس في بطن حوت، مع لعنة عظيمة وسوائل لزجة ورائحة عطن راكد... كان يختنق.

ـ غيبة طويلة...

بادره منصور قبل أن يسأل عن عرجه الظاهر:

ـ ما لرجلك؟

سكت...

لم يقُل أنه كان يتنصَّت على عتبة باب جاره، إنما استغل سكوته في أن يتأمَّل صاحبه القصير السَّمين، للحظةٍ، كان سعيدًا بمقدار اللهفة التي أظهرها لما دخل إلى الدكان، غيبة طويلة وساق مُصابة، وحالة من التوهان، تأمَّل صاحبه، كأنه يراه لأول مرة، نظر إلى بنطلونه المتهدِّل عند المؤخرة، تتدلَّى

من عروته الجانبية سلسلة مفاتيح ثقيلة، تُجلجل مهتزةً مع كل حركة، ودقق في كرشه الضخمة، وصلعه الزاحف، ورقبته التي اختفت تحت طبقات الدهن، ثم نظر إلى وجهه المُدوَّر وعينيه الصغيرتين، فأحسَّ بأنه طيب، وشعر نحوَه بحُب كبير، ربما أكبر مما كان يتصوَّر.

ـ ما فيش... خبطة صغيرة.

وراح يعبث بكراسة الحسابات التي وجدها أمامه، وفي الوقت نفسه، أمسك منصور الريموت وهو يهز رأسه باستياء.

ـ وصلة زبالة... ولا فيلم أجنبي واحد!

ثم نظر إلى حنَّا في لهفة...

ـ صحيح... إيه حكاية الكيلوت دي؟

أشار حنَّا بإصبعه إلى السماء...

ـ وقع من فوق!

ضحك منصور.

ـ فال خير!

ـ ويمكن يكون رسالة من السما!

انفجر منصور ضاحكًا، وهو يُشير بإصبع مهتزٍّ إلى وجه

صاحبه الجاد، وراح يدق الأرض بقدمه...

ـ رسالة، السما، الكيلوت!

خخخخخخ

ضحك بشدة، وراح يسعل بعينين منتفختين ودامعتين، ثم بدأ في الانحناء متخليًا ـ بالتدريج ـ عن كرسيِّه، حتى انتهي به الأمر متكوِّرًا حول نفسه على الأرض.

تأمل حنًّا صاحبه، الذي كاد يموت ضحكًا، وسأل نفسه «هل ما قلتُه يستدعي كل هذا الضحك؟» أحسَّ بالحرج، وتصوَّر نفسه غبيًّا.

ـ الله يلعنك... كنت ها تموتني.

صاح منصور، وهو لا يزال يُمسك ببطنه، وكان قد هدأ قليلًا، وعاد ليستردَّ كرسيَّه من جديد، بينما بدأ حنًّا ـ كنوع من الهروب ـ في الانشغال بكراسة الحسابات.

ـ مين صفية؟

فى تلك الأيام، تناثرت الشائعات بأن من أُخرج من الحفرة، ليس صدَّامًا، إنما هو دوبلير يُشبهه، وكانت فكرة جديدة، جديرة بالتأمل، ولذلك خطرت على بال منصور، حينما سأله حنًّا عن صفية، وهذا بالمناسبة ليس اسمها، إنما قد يكون

اسم دوبليرها هي أيضًا، هذا الذي يحمل عنها الآثام بقلب طيِّب، لأنه عندما لا يجد المرء من يفعل ذلك، فإنه ينقسم إلى شخصيتين، تتوارى الواحدة منهما في نقاب الأخرى، ثم تُسدل على نفسها إسدالًا كثيفًا كالخباء، فتخلق بهذا فاديها، أو دوبليرها الخاص.

ـ شيزوفرينيا.

ـ تماام... شيزوفرينيا.

هكذا هي صفية، حينما تسدل إسدالها، وتُحكم نقابها، تصير واحدة غيرها، دوبلير أسود، ليس له علاقة بمن يقبع تحت الملابس، فعندما تُصدر دوبليرها، كواجهة، لا أحد يراها، ولا أحد يعرفها، كأنها تلبس طاقية الإخفاء، وهي، ما فعلت ذلك إلا من أجل تلك اللحظة المقدَّسة، لحظة الاختباء، حيث تفرض سيطرتها على سلطان الخارج، بينما هي في داخلها شخص آخر، يحتمي بستر الخيمة السوداء، التي تنفضها كل ليلة، فيتطاير الحياء وتذوب الذنوب، كي تتطهر، ويعود النقاء لسوادها الحالك، شيزوفرينيا، شأنها شأن كل شيء في هذه الأيام الغبراء.

ـ هي أم الشيزوفرينيا!

سحب منصور نفسًا عميقًا من سيجارة الحشيش...

- الهدوم.. يا ما بتخبِّي.

- الهدوم!

إن أكبر غواية يمكن أن يتعرض لها الإنسان هي المظاهر، وبالأخص، تلك المتعلِّقة بالملابس منها، ولذلك، كان حنَّا يعيش في شقته بصورة بدائية، فهو - مثلًا - لا يرى في ملابس البيت أي معنى، طالما يعيش وحده، فلا فائدة من التقيُّد بتلك القيود الاجتماعية، إلا عندما يقابل الناس، أو يمشي بينهم في الشارع، لكنه اضطر أن يتنازل عن هذ المبدأ، عندما بدأ العمل على الباخرة، فاشترى، لأول مرة منذ بلوغه، بيجامة كستور مُخططة، والغريب أنه لما لبسها أحسَّ بالخجل، كأنه لا يلبس شيئًا.

كان يجد في العُري راحة حلوة، تتناسب مع الأجواء البيتية، حيث يعيش أغلب حياته، في فلك نوح الذي صنعه لنفسه، وكان يحب هذه الحالة، يخلع كل ملابسه، وهو على مكتبه يكتب، أو مضجعًا ليشاهد التلفزيون، أو يأكل على أرض الغرفة، مفترشًا صفحة من جريدة قديمة.

وفي بعض الأحيان، كان يضطر للبس الشورت الداخلي وحده، عندما يتضايق من الخصيتين المتدليتين، يحس أنهما يعوقان حرية حركته، ينضغطان بصورة مؤلمة عندما يجلس،

ويتأرجحان بجنون وتخبُّط عندما يمشي، فضلًا عن أن الشورت يكسر تلك الصورة الغريبة، التي يرى نفسه عليها، عندما يمر أمام المرآة، حيث يرى نفسه حيوانًا همجيًّا من عصر عتيق متخلِّف، ويُفكِّر بأن الإنسان، باختراعه للملابس، وتخصيصها كمَيزة له وحده، خدع كل الحيوانات الأخرى، أوهمها بالاختلاف والتطور، فصدقت، وتركته يُمسك زمام الدنيا.

ـ يعنى إيه؟

رفع كتفيه وبسط يديه في حيرة...

ـ واحدة كدة!

ـ مومس يعني؟

ـ آه... بس ملتزمة حبّتين.

وراح يضحك...

•

ولكن الوضع لا يُقاس على هذا النحو الساخر، فالحقيقة أنها كانت ملتزمة فعلًا، بل وصاحبة مبادئ حاسمة لا تحيد عنها أبدًا، على سبيل المثال، حينما اتصل بها منصور، قبل نصف ساعة من مجيئها إلى دكانه، وأخبرها إنه لن يتمكن من توفير الشقة، إلا بمشاركة صاحبها في (الليلة) شخرت...

ـ خواجة!

ثم أعلنت أهم مبادئها على الإطلاق...

ـ مش ممكن، أنا ماليش في النصارى.

(2)

خواجة!

متى سمع هذه الكلمة لأول مرة؟

هناك أمور لا يحب حنًّا أن يبوح بها للآخرين، فشخص مثله، لا يمكنه أن يحكي بارتياح، ودون خجل، أن شخصًا ما قد طرحه أرضًا بضربة قاسية من قبضة يده.

حدث هذا في يوم بعيد، بعيد جدًّا، منذ ما يقرب من 27 عامًا، كان وقتها طفلًا طيبًا في المدرسة الابتدائية، يغلب على سلوكه الهدوء والصَّمت، وليس له صداقات قوية بأقرانه، إنما له عادات، يواظب على تنفيذها كل يوم، منها على

سبيل المثال أنه يمشي وحده، بعد انتهاء اليوم الدراسي، وهو يُحصي خطواته إلى البيت، ناظرًا دومًا إلى الأرض، وحقيبته الجلديَّة الثقيلة مُعلَّقة على كتفه، ولا يلتفت إلى صخب العيال وضجيجهم، بل يبدأ في العدِّ بآلية وثبات، بدايةً

من باب المدرسة، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة... وقبل «خمسة وخمسين وخمسمائة وألف» من خطواته الصغيرة، بين شوارع ضيقة ودروب ثعبانية ملتوية، يجد باب عمارة الخبرا الحديدي أمامه.

في ذلك اليوم، وعند شارع جانبيٍّ صغير، كان يدخله، عادةً، وهو يُنهي الخمسمائة الأولى من الخطوات، باغتته لكمة قوية على فكِّه الأيسر، كان ينظر إلى الأرض، فلم يتبيَّن - للوهلة الأولى - مصدرها، قوة اللكمة جعلته يصطدم بالحائط، وبسبب الحقيبة الثقيلة، اختلَّ توازنه وترنَّح، قبل أن يجد نفسه منكفئًا بوجهه على الأرض، تلتقط أنفاسُه المتقطعةُ رعبًا ترابَها الناعم، ثم تبيَّن عددًا من الأحذية الصغيرة تلتفُّ حوله.

- آآآه!

تأوَّه وهو يقرر، بينه وبين نفسه، ألا يفكر في الآتي، ولذا لم يرفع - على الأقل - عينيه ليرى مهاجميه، ولكنه توقَّع

من حركة الأحذية حول رأسه، أن واحدًا منهم بصدد رفعه، فامتثل تمامًا لليد التي جذبته من شعره، إلى أن استقر جاثيًا على ركبتيه.

ـ يا كافر يا خواجة، يا ابن الكلب.

قال كبيرهم وبصق على وجهه.

ثم انحنى وشدَّه من شعره مُقرِّبًا وجهَه جدًّا من وجه حنَّا.

ـ القسيس بيركب أمك في الكنيسة... هيه، مش كدا؟

تطلع حنَّا في وجوههم، وجوه مألوفة لتلاميذ في المدرسة، ومنهم واحد يزامله في الفصل نفسه، وهذا بالذات سبق لحنا أن أقرضه سندوتش، وربما لذلك يقف منزويًا، كأنه لا يتبعهم، هذا الزميل، صار الآن طبيبًا وافتتح لنفسه عيادةً في شارع السوق.

ـ انتم عايزين منِّي إيه؟

وضع الكبير سِن مسطرة بلاستيك، كان يُمسكها، على رقبة حنَّا، وقال بلهجة آمرة:

ـ أسلِم...

فسأله حنَّا:

ـ إزاي؟

غرس سن المسطرة في رقبته وهو يزعق:

ـ قُل الشهادة.

تردَّد حنَّا قليلًا قبل أن يسأله:

ـ يعني إيه؟

ـ قُل لا إله إلا الله مُحمد رسول الله.

لحظتَها، اقترب زميل فصله، وراح يهز رأسه متودِّدًا، وبلهجة رجاء، ضيَّق بسببها عينيه، أخذ يتوسَّل لحنَّا وهو يربت على ظهره بحنوٍّ بالغ:

ـ قُلها يا حنَّا... الله يبارك فيك قُلها.

تلعثم حنَّا...

ـ أشهد...أأأ... أأشـــ....

بينما راحت العيون من حوله تشجِّعه...

ـ قُلها... آآآه انطق.

وحدث أن فتحت امرأة نافذتها، في اللحظة نفسها، وأطلَّت على المشهد، فصرخت:

ـ يا نهار أبوكم أسود!

وفي لحظة خاطفة، اختفت المرأة خلالَها وعادت، وجد العيال فِرَد الأحذية تنهمر عليهم من النافذة، كانت تقذفها فوق رؤوسهم بقوة وهي تصرخ بحُرقة:

ـ يا أولاد الكلب... يا معدومي التربية.

وقف حنَّا ينفض ملابسه، بعدما تركوه وجروا وهم يصيحون:

ـ «يا خواجة فوت فوت... بكرة ندبحك وتموت».

بالتدريج، أخذت صيحاتهم تخفُت، إلى أن تلاشت تمامًا، عندها، كان حنَّا قد رتَّب حقيبته، قبل أن يُعلِّقها على كتفه، وكان قد قرر أن يتابع السير، دون أن يعد خطواته هذه المرة، فلم يكن ذهنه صافيًا لهذه الدرجة.

إنما كان يفكر بأن النافذة التي فُتحت، ما هي إلا طاقة من السماء، وأن المرأة التي ظهرت، لم تكن سوى ملاك جاء لإنقاذه، وتأكد من ذلك حينما انفتح بجانبه باب، وفجأة، وجد المرأة أمامه، كانت سمينة بثديين ضخمين، تمسك

بيدها دورقًا زجاجيًّا به عصير ليمون، أشارت له، فاقترب، ناولته كوبًا، دلقه في جوفه دفعةً واحدةً، فناولته آخر، إذ بدا أن محنته لم تجفِّف ما في جسده من سوائل فحسب، بل وجففت دمَه أيضًا.

إلا إنه كان متماسكًا، رغم الألم الفظيع الذي يُفتِّت رُكبتيه، ولم يتوقَّع أنه سينهار تمامًا، عندما تحتضنه المرأة، وأن تماسُكه سيذوب كالشمع في حرارة ثدييها العظيمين، وكأنما كان يحتاج لذلك، حتى يفتح مغاليق رُوحه، ويندفع لإراقة كل ما في دمه من كبرياء، غصبًا، في نشيج مكتوم وحارق.

رجع منصور بظهره على الكرسي وقال:

ـ يااااه... دا انت تعبان طحن!

ثم ضرب كفًّا بكف...

ـ أما كيلوت هزَّك كدا أُمال بتعمل إيه قدام مايوهات الباخرة؟

للحقِّ، احتاج حنًّا وقتًا طويلًا، قبل أن يعرف أن على الباخرة بشرًا غير عُمَّالها، وغير تلال الأكواب والكؤوس والأطباق والملاعق والشوك والسكاكين، وكل تلك الأشياء اللا

نهائية الجبَّارة، التي لم يكن يرى في الباخرة سواها.

كان يغسل، في اليوم الواحد، آلاف الكؤوس، ويلمِّعها، بشرط ألا يترك عليها بصمةً واحدة من أصابعه، ثم يُطلقها بغير وداع، لأنها ستعود سريعًا إلى الحوض، أمامه، مرةً أخرى، في دورة لا تنتهي إلا بانتهاء الصخب الموسيقي الراقص، الذي لم يكن يفصل بينه وبين حنًّا، سوى طاقة صغيرة، تمتد منها الأيادي لتسحب ما يغسله تباعًا، وتدفع بما سيغسله تباعًا، فلم يكن مسموحًا له بمغادرة الـ «back area» أو المنطقة الضيقة الواقعة خلف البار، 3 متر × 2 متر، والتي تكتظ فيها، رغم ذلك، غسالة الأطباق وثلاجتان ومبرِّد مياه وماكينة أخرى تقذف بمكعبات الثلج الجاهزة في الكؤوس، وهو واقف، في مساحة تكفي بالكاد لحذائه، واقف طوال اليوم، وعروق الدوالي تنتفخ وتتمدد على ساقيه وتتلوى كثعابين زرقاء صغيرة تحت الجلد.

ـ مايوهات!

قال حنًّا مستنكرًا وهو يشيح بيده في وجه منصور، ثم هز رأسه باستياء...

ـ مايوهات إيه يا عم الحاج؟

لو أنصفوا، فواحد مثل حنًّا، كان يجب أن يُفصل من عمله، منذ زمن طويل، ولكن لأسباب شخصية، بعضها اضطراري، استبقاه المتر عاطف، الذي بخبرته، وبِبُعد نظره، ستشرف الكارثة التي من الممكن أن تحدث، لو تعامل حنًّا مع النزلاء الأجانب، بحركاته المرتبكة ومزاجه الكئيب وخجله المستوطن، فضلًا عن عناده العظيم، الذي يأبى له أن يتعلم شيئًا، ويُباعد بينه وبين الكوانتر المهيب، ذلك الذي يقف المتر عاطف وراءه كالأسد موزعًا قفشاته المضحكة على الجميع، وهو يقدِّم لهم الكؤوس، بحركات بهلوانية، تتطاير خلالها الملاعق والسكاكين من بين يديه، آه، كأنه ساحر ببدلته السموكن وببيونه الأسود.

قال منصور:

ـ اسمع...

ثم قام من كرسيِّه ومشى، ثم وقف في وسط الدكان، وقال بلهجة مسرحية وهو يفرد ذراعيه كمن ينتظر حضنًا:

ـ أيها اللص المسكين... اليوم ستكون معي في الفردوس!

أخرج الموبايل من جيبه، وبحث عن رقم صفية، قبل أن يضعه على أذنه ويخرج من الدكان.

بعدها بدقائق عاد مبتسمًا وهو يغمز لحنًّا...

ـ خلاص وافقت.

إذا كان لا بُد لك من السقوط، فاترك نفسك تمامًا، ولا تقاوم، حتى لا يكون سقوطك مُضاعَفًا، فلا تدع عضلاتك تتشنَّج، ولا تفكِّر فيما قد يحدث بعد السقوط، هي وقعة والسلام، دعها تحدث لجسدك، واحتفظ برُوحك بعيدًا.

ـ خلاص وافقت.

كرَّر منصور، ولم يرد حنًّا أيضًا...

كان يفكر في والده، الدكتور دميان، الطبيب البيطري، كيف كان يعيش هذا الرجل، كان كبندول الساعة، لا يحيد عن مساره أبدًا، يتقدَّم بهدوء، تكة تكة، إلى الأمام، عجيب هذا الرجل الذي كان يحمل في جيبه دفترًا أصفر، دومًا كان في جيب قميصه، ناحية القلب، اعتاد قبل موته أن يدوِّن فيه خطاياه، حتى يتلوها بيُسر على الكاهن في الاعتراف، ولم يكن ذلك للتغلُّب على النسيان، بقدر ما كان نابعًا من رغبة حقيقية في ممارسة الدِّقة اللائقة، التي يجب من خلالها أن يتحاسب مع الرَّب.

لتفاهتها أن تُدوَّن، لأنها، لتفاهتها أيضًا، جديرة بأن تُنسَى، فما حاجته لأن يقرأها، شرب سيجارة يومًا تحت وطأة إزعاج العمل.

اضطر أن يسبَّ مديره في سرِّه مرةً، شتم الجزار والبقال لجشعهم الدنيء ورغبتهم في استغفاله، لعنَ غباء أبو الدنيا في لحظة ضيق خاطفة، هو عارف بنوعية خطايا أبيه، لن تكون أشدَّ وطأةً من ذلك، كان قديسًا، وهذا بالذات ما يؤلمه، كان يقول لأبيه في نفسه «لقد جاء اليوم الذي أدنِّس فيه بيتك وفراش عُرسك، أنا الخاطئ، جميل أن تكون الآن ميتًا، ذاك أفضل جدًّا».

صاح منصور بنفاد صبر:

ـ انت يا عم... بقول لك وافقتْ.

ـ وافقت؟

ارتمى منصور على كرسيه، وكأنما يكلم أحدًا غيره...

ـ تمنَّعت شوية.

وسكت لحظةً قبل أن يستكمل...

ـ لكنها وافقت.

إلا إنه لم يقل لماذا تمنَّعت في البداية، ولم يسأله حنًّا كذلك، لأنه لم ينشغل إلا بتلك الكآبة، التي غلَّفت الكون حولَه فجأة، وجعلته يضيق ويضيق ويعتصر صدره اعصارًا، فتتساقط من رئتيه زفرة حارقة...

يا الله! لو تعبُر عني هذه الكأس...

ـ حاسس إن تعبان كابس على صدري.

ـ ما لك؟

ـ بفكر في قصة جديدة.

ـ قصة جديدة؟

ـ اسمع...

يرى الإنسان، بعينه القاصرة، أن كل ما في حياته من آلام، مجرد ظروف مؤقتة، أو حالة طارئة، رغم أنه لا يرى أن حياته ـ نفسها ـ كذلك.

ـ عارف ليه؟

ـ ليه؟

لأن هناك اختراعًا مذهلًا، يشبه حشيش سيجارتك، اسمه

الأمل، ولذلك لا تندهش لو استيقظت يومًا، فوجدت ثعبانًا جاثمًا على صدرك، ستصبر، ولا بُد لك أن تفعل، لأنك تعرف أن أيّ حركة ليست في صالحك، فربما ينزعج الثعبان، ويبدأ في الهجوم مع أول مبادرة صراخ، أو حركة، فلا تتحرك ولا تتنفس، وتصالَح مع وضعك، الذي تظنه طارئًا، واتخذ الثعبان لك صاحبًا، حتى ولو أفقدك يومك، وغيَّب عنك شمسَه، اصبر، اصبر ونم، فالنوم سُنة الحياة، مثل الموت تمامًا.

- يخرب بيتك! صاح منصور.

هو أيضًا يشعر بنفس الحالة، كما لو كان حجرًا ثقيلًا جاثمًا فوق صدره.

- بُص.. بُص.

أمسك الريموت، ورفع درجة الصوت، ووهب نفسه تمامًا للمشهد.

يا الله! أسد يأكل بني آدم!

يلتهمه التهامًا مؤثرًا، يقبض بفكَّيه على رقبة المسكين، فتختلط التأوُّهات بالزمجرة بصرخات فزع آتية من بعيد، وكانت الكاميرا في يد المصوِّر تهتز، فيهتز الكادر المزعج كأنه حلم، وبينما يتابع منصور المشهد، بنفس حماسة متابعته

لمباراةٍ بين الأهلي والزمالك، كان حنًّا مضطربًا، يشعر أن صدره ينقبض، وملامح وجهه تشكَّلت بتعبير اشمئزاز لا مثيل له، جعله يهب نفسه تمامًا للحظة تأمُّل نادرة، قبل أن يتبيَّن أن المشهد حقيقيٌّ، وليس مشهدًا من أحد أفلام الغابات الخيالية.

وفجأةً دخلت صفية، كشبحٍ أسود.

(3)

خبطت يدها على صدرها...

ـ يا خرابي!

حاول حنًّا أن يخمِّن تعبير وجهها، فلم يتمكن، لكنه رأى أن صرختها لا تعني شيئًا، إلا محاولة للإعلان عن حدث مجيئها، الذي سحبت أجواء الافتراس البساط منه، وهذا طبعًا، لم يُرضها، كانت بصرختها كمن يقول: أنا هنا.

وحنًّا كذلك... هُنا.

لمحته صفية فور دخولها، لكن، بعين مختلفة...

لمحته يجلس منزويًا في ركن الدكان، بظهر مُستقيم، شبه

متخشِّب، ياقة قميصه الأبيض متسخة من العرق والغبار، وأزرارها مقفولة كلها، حتى الرقبة الغليظة بعض الشيء، وفوق القميص بلوفر من الصوف الخفيف، لونه رصاصيّ باهت، يتناسب مع لون البنطلون الجينز الداكن، الذي لا يمكن تقييم مدى نظافته، ولكنه يُظهر إلى حد كبير مدى سوء حالة الحذاء المترب، الذي يعلوه ـ في أكثر من موضع ـ الطين الجاف.

همست:

ـ يا حسرة!

وتساءلت، بينها وبين نفسها، ألا يكسب من عمله بالسياحة! فلماذا لا يشتري لنفسه قميصًا جديدًا؟

ثم قالت لمنصور وهي تقلِّب يديها:

ـ شكلها ناشفة!

انتحى بها منصور جانبًا، وهو يهمس في أذنها، ثم أخرج كتالوجات العطور، وبدأ يستعرض صفحاتها أمامها، كان يدعي أنه يبيع، وكانت تدعي أنها تشتري، بينما راح حنًّا يدخِّن وهو يُحملق في الشاشة المضيئة بألوانها المهتزَّة متخذًا لنفسه سمت الضَّيف المُحايد، وهو يكاد ينفلق من الملل، خصوصًا بعدما عادت المشاعر في داخله تضطرب من

جديد، بين حزن وقرف وأسًى ولوعة، وبدأ يفكر بأن الإنسان لا بُد وأن ينقرض من هذا الوجود، طالما هو ضعيف لهذا الحد، فلماذا إذًا بقيَ، بينما انقرض الأقوياء!

تمكَّن من الإجابة عن هذا السؤال، في نظرته الثانية أو ربما الثالثة لصفية، إذ إنه اطمئنَّ إلى أن الإنسان قد انقرض فعلًا، فمَن هم موجودون الآن مُجرَّد مسوخ، تمكَّنوا، ببعض الحِيَل الدنيئة، ألا ينقرضوا.

كان حنًّا شديد البُغض لجنس البشر، لا يؤمن بإمكانية الإصلاح، أو حتى جدواه، الحل - في نظره - يكمن في نيران صاعقة تنزل من السماء، وتقضي على الكل، وينتهي الموضوع، كي يُعاد تشكيل العالم من جديد، بنظافة، كما حدث في طوفان نوح.

ولكن ينبغي، هذه المرة، أن يكون هناك معجمًا كونيًّا للغة مشتركة بين البشر، يعرف الإنسان الجديد مفرداته بالفطرة، ليفهموا بعضهم بعضًا، الاختلاف رحمة، صحيح، إلا في القيم المُطلقة، التي لا تقبل تزييفًا، بشرط أن يكون المعجم جامعًا، بحيث يشمل كل البشر على اختلافاتهم، ومانعًا حتى لا تختلط المفاهيم مرةً أخرى، فالدين دين، والحق حق، والخير لا يرتدي ثوب الخبث أبدًا.

ولكن هل هذا وقته؟!

منتهى العبث!

يهدم الدنيا في طرفة عين، ثم يُقيمُها بكلمة، وهو على هيئته هذه، التي تفتقر لمرآة البشر الذين يبغضهم، حتى يعرف مدى تفاهتها، ومدى قذارتها، يجلس منزويًا ومتخشّبًا ومختنقًا بياقة قميصه المُتسخة، في دكان حقير مترب ومُعبق برائحة عطن الخضار الفاسد، صاحبه لا يفكر إلا بتدخين الحشيش وركوب النساء، دكان يقع في مدينة منسية على ذيل الخريطة، يستخدم ناسُها النافورة كمسقى للبهائم.

هل هذا وقته؟

وهو على أعتاب نكاحه الأول، الذي جاء متأخرًا جدًّا، ورغم ذلك، جاء دون إرادته، فهو لم يوافق، إنما ـ بالأدق ـ استسلم، كما هي عادته، مُهيئًا نفسَه للحظة التراجُع الأخيرة، التي لن تأتي، فمن يضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء، وهذا ما تيقَّن منه الآن، تحديدًا، الآن فقط، حينما انتهت مشاهد الافتراس، وبدأت الإعلانات التافهة.

بينما صفية لا تزال زبونة، أدرك حنًّا هولَ قراره، حيث بدأت أمعاؤه تتقلّص، وريقُه يجفّ، ثم شعر أخيرًا بمغص عنيف، جعله يسبُّ طراوة مشاعره، ويحنق على شخصيته المهتزَّة، ويتساءل: لماذا لا أكون كمنصور جريئًا! وفكَّر أن

حظَّه في الدنيا قليل لأنها تُؤخذ غلابًا، ولم تكن يومًا بالتمنِّي، الذي لم يقم، طوال حياته، بفعل غيره.

تُرَى كيف تبدو صفية وهي مجردة، هكذا، دون خيمتها السوداء؟

(4)

سيحدث ذلك على النحو التالي:

يعود حنًّا إلى شقته، وصفية وراءه، بينها وبينه مسافة، بشرط أن تكون كافية لإبعاد الظنون الشريرة، وبينما يدخل هو بشكل طبيعي، تتسلل هي، بحيث لا يراها أحد، من باب عمارة الخبرا، وسيترك لها باب الشقة مواربًا، حتى تمرُق كالسَّهم، يقضي معها وقته، بحيث لا يتجاوز الساعة التاسعة، ثم يتركها، ويترك الشقة كلها متجهًا إلى الباخرة، التي لن تغادر المدينة إلا في الصباح...

ـ ساعتها أطلع أنا!

قال منصور وهو يغمز بعينه اليسرى.

ثم تمم على كلامه باسطًا يديه أمام وجهيهما.

ـ خلاص، اتفقنا؟

هكذا تلاحقت الأحداث، بصورة لم يتوقعها، فهو لم يفعل شيئًا، إلا أن عاد في إجازة، بعد غيبة طويلة، ولكنها ليست أطول من ساعات هذا اليوم الغريب، الذي لا يريد أن ينتهي، ككل الأيام، وهذا هو الجحيم بعينه، أن تشعر بأن أيامك بطيئة، لا تمر، ولا يختلف شعورك كثيرًا، إذا ما مرَّت أيامك بسرعة، لأنها تتلاشى كما يتلاشى الماء بين يديك، دعها، إذًا، تتهادى، وتتبختر، كما تتبختر صفية الآن في مشيتها وراءه.

وهو، حنًّا، يمشي كأنه لا يمشي، بل يزحف، يُجرجر رجليه جرجرةً سخيفةً، لا كمثل عرجه الأول، الذي جاء به إلى الدكان، إنما كمثل واحد يكسح التراب بحذائه كسحًا، مثيرًا زوبعةً صغيرةً من الغبار، تتصاعد كالدخان من أسفل ساقيه، فبدا من بعيد، أو من عين صفية تحديدًا، كصاروخ على وشك الانطلاق نحو السماء، وفيما بعد، قال أحد أصحاب البازارات، التي مرَّ عليها في طريقه، إنه كان يسير كنعجة مُساقَة للذبح، يرفع رجلَه بمشقَّة، ولا يريد أن يتقدَّم، كأنه مدفوع بالغصب للعودة إلى بيته.

كانت الساعة تشير إلى السابعة، وكان الجو حارًّا خانقًا،

وهذا ـ أيضًا ـ مما يُثير الدهشة، ليس الجو، إنما الساعة، فها هو يعود إلى شقته، بعد ساعتين من نزوله منها...

هل حدث كل ذلك في ساعتين؟

ما له هذا اليوم؟ هل أقسم ألَّا يمُر؟

كان يحاول أن يبدو عاديًّا، رغم أن وجهه لا يوحي بذلك، بل يوحي بالشرود التام، لدرجة أنه كان بصدد أن يُشعل سيجارة الحشيش، التي أعطاها له منصور، بدلًا من أن يُشعل سيجارته العادية، كان قد حشرها في العلبة، ونسي، فاستقرت بين سجائره، ولم يلحظ أنها منفوخة أكثر مما ينبغي، عندما وضعها بين شفتيه، لاحظ ذلك ـ فقط ـ عندما قرَّب من رأسها الولَّاعة بعد مرور عدة دقائق.

آآآه

هل رآها أحدهم وهي بين شفتيه؟

مُصيبة!

أما المُصيبة الأكبر، فهي فقدانه السيطرة على رأسه، الذي كان يستدير، رغمًا عنه، كطبق الدش، ويتحرك بآلية إلى الخلف، ليلتقط صورةً خاطفةً للخيمة السوداء التي تقتفي أثره، ثم تعود مجددًا إلى وضعها الطبيعي.

يحدث هذا كل بضع دقائق...

كان منظره مُريبًا...

لا لغباءٍ أصيلٍ في طِباعِه، إنما لأنه، دومًا، كان مثل الكتاب المفتوح، لا يمكن أن تستغلق عليك سطوره، لا يكذب، ليس في كلامه فحسب، بل في مظهره أيضًا، تعبيراته، حركات يديه، طريقة سيره، ونبرات صوته، باختصار، كان عدوًّا لذات نفسه، إذا اقترف ذنبًا، يتحوَّل بكل كيانه إلى إصبع اتهام، ويُشير إليها.

فضلًا عن شعوره بأن هناك عيونًا تترصَّد خطواته، وهذا ليس هاجسًا مرضيًا، أو وسواسًا قهريًّا، لا سمح الله، إنما هو أمر طبيعي، يحدث لكل واحد يعيش بمفرده في هذه المدينة، أو بتعبير أدق، يعيش في حالِه، فلم يسبق أن رد تحية أحدهم، ولم يقُل لأحدهم، في يوم من الأيام، السلام.

كان عليه أن يُراعي قوانين المدينة، طالما قد قبل أن يعيش فيها، بالرغم من إنه لم يُخيَّر - أصلًا - بين العيش فيها، أو العيش في غيرها، لقد وجد نفسه هنا، منذ مولده، ولم يشعر بكل تلك السخافات، إلا بعد موت أبيه، هذا الذي كان يُغنيه عن القوانين، ليس في المدينة وحدها، بل في الدنيا كلها.

فلم يكن مضطرًّا أن يُجامل في الأعراس، أو أن «يوجِّب» في المآتم، أو أن يهنئ في الأعياد، كان يعتبر كل ذلك من التفاهات، وهذا قد يستفز البعض، وقد يعتبره البعض الآخر نوعًا من التعالي، الذي لا لزوم له ولا معنى.

ـ هو فاكر نفسه مين؟

هكذا يقولون، والغضب يفور في نفوسهم، ويمتزج مع حقد أصيل، لا يمُت لشخص حنًّا بصِلة، هذه المرة، إنما ينصبُّ بالأساس على شقته، هذه الشقة التي تمرح فيها الخيل، المُطِلَّة على النيل، له وحده، يعيش فيها كالكلب، دون زوجة، بينما أعتاهم، وجاهةً ونسبًا، لا يملك جحرًا يتزوج فيه...

ـ صحيح... يعطي الحلق للي بلا ودان!

قال أحدهم، ذات مرة، وهو يتغامز، فأثار عاصفة من الضحك، لقد فهموا جميعًا ما يقصده، فإذا كان الحلق يعني الشقة، التي رغم توفرها لا يريد حنًّا أن يتزوج، فما الذي تعنيه الـ (ودان)؟! وما الذي ينقُصه ـ بالضبط ـ كي يتزوج؟

لقد فهموا ما قصده صاحبُهم الماكر، ورغم ذلك، كرَّر آخر كلامَه وأكَّده...

ـ الظاهر إنه مالوش في الحريم.

كانوا فقراء، ومثلهم مثل مَن في أعمارهم، صار الزواج بالنسبة لهم حُلمًا، ليس مجرد خطوة في الحياة، إنما أقصى أمانيها، فمن أين لهم بالشقة، وبالمهر، بل من أين لهم بالوظيفة ـ أصلًا ـ التي ينفقون من دخلها على بيوتهم الجديدة؟

وطبعًا، لو قُدِّر لهم، أن يسمعوا سبب عزوفه عن الزواج، لشدوا شعر رؤوسهم، ومزقوا ثيابهم، وجروا في الشوارع كالمجانين، ولكن، الحمد لله، ليس منهم من ينوي أن يسأله، وحنًّا ـ بالطبع ـ لن يقول، فهو غافل تمامًا، وبعيد تمامًا، لا يسمع ما يُقال خلفَ ظهرِه، ولا يدري أن حياته، صارت علكةً في أفواه الناس.

لم يفكر حنًّا في الزواج، رغم أن قس الكنيسة سبق وأن عرض عليه عشرات البنات المحترمات، ليس حبًّا فيه، فهو في نظره لا يستحق، هذا الولد المارق غير الملتزم دينيًّا، فلا صلاة ولا اعتراف ولا تناول.

وبلا شك، من يبحث وراءه، سيجده غير ملتزم أخلاقيًّا، طالما يعمل «بار مان» ولا يريد أن يتزوج، قائلًا أن الزواج لن يفيده في شيء، لأنه رتب أن يملأ حياته بدونه، هكذا، وما الذي يمكن أن يملأ حياة المرء، غير المسيح فيترهب، أو الأسرة فيتزوج، ولد مجنون بصحيح، إنما إكرامًا لذكرى والده

الراحل الدكتور دميان يهون كل شيء.

إذًا كيف يمكنه أن يُرضي الناس؟

ولكنه لا يفكر في إرضائهم، إنه يبغضهم، ويبغض نفسه أصلًا، ويرى أنه غير مضطر لأن يضيف إليها نتوءً غريبًا، لا يعرف ما ينتج عنه إلا الله، فكيف له أن يتزوج، الواحد لا يُطيق نفسه في هذه الدنيا، فكيف يُطيقها لو انقسم إلى اثنين!

هو حر، ليرى ما يراه، والناس أيضًا أحرار، في أن يتتبعوه بعيونهم، التي يشعر بها تخترقه، ولكنه لا يصدق أنها تفعل ذلك...

معقول!

لا طبعًا... ما لهم وما لي؟

كان ينسب هذا الشعور، لا لتطفُّل الناس، إنما لخللٍ ما في شخصيته، هو، فيُضيف ذلك، إلى خجله المُزمن، خجلًا جديدًا، يجعل أغلب حركاته مضطربةً، وسلوكه مرتبكًا، فحركة هذا الرأس الكبير، الذي يُشبه طبق الدش فعلًا، لا يمكن أن تخطئها عين، فضلًا عن مشيته، وهذه الخيمة السوداء التي تتبعه، تنحرف إذا ما انحرف، وتستقيم إذا ما استقام.

والناس التي اعتقلها الغبارُ في البيوت، خرجوا جميعًا، كأنما لينتقموا، بعدما ذهب وذهبت معه الرياح، وحلَّ سكون، لا يُعكِّره إلا الزِّحام، خلق لم تعهده المدينة، يملأ كل الشوارع، والمصاطب، وعتبات البيوت.

لكن، فات وقت الرجوع، فقد وضع يده على المحراث، وعليه أن يتقدم...

همس لنفسه:

ـ يا رب... لتكن مشيئتك.

ثم دخل من باب العمارة، كان قلبه يدمدم، كأنه سينفلت من بين ضلوعه، لكنه صعد السلالم بهدوء، وقد رفع رجله، تمامًا، عن الأرض، وراح يخطو كأنه يمشي على شظايا من زجاج، ورغم ذلك، سمعته سعاد بنت البواب، كانت جالسةً على دكَّة تحت السلم مباشرةً، تُفلِّي صغيرها النائم في حجرها، ولذلك احتاجت لبعض الوقت، حتى تُبعد رأسه عنها بهدوء، قبل أن تسوِّي له مكانًا على الدكَّة، وتقوم...

لم تلحق بحنًّا، لكنها رأت ظِلَّه، يتسلل كشبح وراءه، ثم سمعته يفتح باب الشقة، ولم تسمعه يقفله، وهذا لا يعني، بالنسبة لها، شيئًا، فهي ليست ـ هنا ـ مكان والدها لتراقب الناس، إنما لاحظت تلك الأمور الصغيرة، بدافع من

مللٍ وفراغ شديدين، يكتنفانها منذ الصباح، وهذا ما جعلها شديدة الملاحظة، ليس إلا.

ويكفي أنها ظلت لثلاث ساعات باركةً على الدكَّة، حتى ظنت أنها لن تقوم، إلا مشلولةً، فوالدها البواب غائب، لم يعُد بعدُ، من عند زوجها الذي رمى عليها يمين الطلاق الثانية، ليلة أمس، وطبعًا، ليس هناك من يرضى بخراب البيوت، حتى لو استلزم رد المرأة إلى زوجها، طاقة تكفي لنقل جبل المقطم، كله يهون، إلا تشريد العيال، وما الذي بين هذا وذاك إلا الكلمة؟ كلمة وردها، يشدها واحد، ويجذبها آخر، أو يقذفها واحد، ويتقيؤها آخر.

لكنها، في كل الأحوال، كلمة، لا يهم أن ينفق البواب وزوج ابنته اليوم في تكرارها، وتُنفق سعاد، هي الأخرى، يومَها في انتظارهما، وهي تكاد أن تنفلق من الملل، يوم يصرفونه في الخير، ألم يتكرر هذا اليوم، نفسه، في الطلقة الأولى، وتكرر الكلام نفسه، بالطريقة نفسها، وخلال الوقت نفسه؟

كانت مشغولة، تستند على درابزين السلم، وتفكر...

وفجأة دخلت صفية...

دخلت بثبات، ولم تتراجع، أو حتى تخفض من سرعتها، بل اندفعت إلى السلم، ولم تعبأ بسعاد الواقفة أمامها، التي

بدورها لم تتجاوز تلك الإهانة، فاستخدمت سلطتها، كبنت البواب، في أن تسألها:

ـ طالعة لمين؟

إلا أنها لم تنتبه لما قالته صفية بالضبط، لأنها قالته بصوت ضعيف، وهي تتقافز طالعةً السلم، ولم تتوقف، كأنها على عجل من أمرها.

ولكنها سمعتها تقول «خالتي»...

ولكن هل قالت (حنًّا)؟

لا طبعًا!

بل قالت (هنا)!

إن الكلمات تختلط عليها من فرط الضيق...

لعلها تقصد أن خالتها تسكن... هنا!

يجوز...

ويُحتمل أنها كانت تشير إلى أم حسين، فربما تكون واحدة من أقاربهم، يجوز!

ـ أوووه... وده وقته؟

يكفي ما هي فيه أصلًا، فلا ينقصها انشغال البال، خصوصًا، بعدما سمعت ـ في اللحظة نفسها ـ صوت صغيرها وهو يستيقظ، فتوجَّهت إليه، قعدت على الدكَّة، ووضعت رأسه على حجرها، وأنامته من جديد، وهي تُداعب شعرَه وتفكِّر... هل سيردُّها زوجها هذه المرة؟ إنها على كل حال لم تكن المخطئة، البيت، المصاريف، والعيال، هموم هموم هموم، لم يعُد في الدنيا ما يُسعد البني آدم، كلها قرف.

ولكنها متأكدة أنها سمعتها تقول «حنَّا»!

وربما قالت «خالتي» وأتبعتها بـ (أم حنَّا)...

هل تقصد أم حنَّا التي ماتت بعد ميلاده بعدة أيام؟

لحظتها... دهمَتها صورتُه، وهو ينزل خائفًا ملهوفًا، قبل أن يتعثر بدرجات السلم ويلتوي كاحله، ثم يسقط على وجهه، وصورته أيضًا وهو يطلع السلم متسلِّلًا كلِصّ، لا يظهر منه غير ظلِّه.

أيّ شقة كانت تقصد؟ سنرى، على العموم، هي لا تزال في العمارة.

وبلا وعي، شدَّت شعر صغيرها النائم، فأنَّ أنينًا خافتًا، ثم غاص داسًّا رأسه في حجرها...

قالت:

ـ وساخة!

وهي لا تزال تفكر.....

الآكل والمأكول

(1)

الباب موارَب...

ولا أحد في انتظارها...

دخلت...

راحت تنظر بذهول إلى الحيطان الباهتة، قبل أن تُلفت نظرها صورة مُعلَّقة لعروسين، صورة قديمة مغبرة وإطارها مكسور، رفعت نقابها الذي لم يعُد له فائدة الآن، ثم نظرت ببرود إلى عيني العروس، فرَدَّتا العينان النظرة ببرود أكثر، تجاهلتها، والتفتت إلى الجهة المقابلة، حيث الساعة الخشبية التي توقَّفت عقاربها وسكن بندولها، ربما منذ

سنوات، لم تكن قد رأت ساعةً مثلها، إلا في الأفلام القديمة، الأبيض والأسود، ولذلك بدأت تشعر بخوف يتزايد كلما تطلَّعت إلى حالة الصالة، بشكل عام، فكل شيء ليس قديمًا، أو مهجورًا، فحسب، بل بلا رُوح أيضًا، رائحة العطن الراكد الناتجة عن دخان السجائر وسوء التهوية، ستائر الدنتيلا الرمادية الذابلة، ومروحة السقف التي تدور بصريرٍ كئيبٍ، كأنه أنين مريض يحتضر، ومع دورانها المُهتز تتخيَّل ـ بين لحظةٍ وأخرى ـ أنها ستسقط، فضلًا عن طاقم الجلوس الذي لم يعُد مُذهبًا، بل أصفر باهتًا، ويبدو أن أحدًا لم يجلس عليه منذ سنوات، فحشيته تخرج كأحشاء حيوان ذبيح.

والأدهى، تلك السُّفرة العريضة التي ترزح تحت ثقل ما عليها من أشياء، أشياء صغيرة وتافهة، ليس لها معنى، وليس بينها رابط، حنفية مكسورة، راديو خَرِب، أواني مطبخ، فردة حذاء، وكتب، أكوام من الكتب، مرصوصة تحت وفوق وجنب بعضها، وهذا ـ بالذات ـ رفع خوفها إلى درجة الهلع...

فجأةً، وبينما هي مُنهمكة، هكذا، تتحسَّس الكتب، في محاولة للسيطرة على خوفها، ظهر حنًّا، وجدته أمامها بشعره المنكوش، وببلوفره الرصاصي، وبقميصه المقفول حتى الرقبة، فذُعرت، واقشعرَّ بدنُها، قبل أن تُطلق صرختها اللازمة الأثيرة...

ـ يا خرابي!

وهي تدق بيدها على صدرها طبعًا، فهذه الحركة، وتلك الصرخة، دويتو معروف، لازمة تكرِّرها دون إرادتها، على اختلاف مقاصدها، فهذه المرة ـ مثلًا ـ ليست مائعة كالسابقة، بلا تلكؤ أو رخاوة، إنما جاءت كصرخة لا شعورية خاطفة، تطلب النجدة، بنبرة جدّ لا هزل فيها...

تراجع حنًّا خطوتين مضطربًا، فزفرت صفية بضيق:

ـ أعوذ بالله... خوفتني.

لم يقل شيئًا، بل تسمَّر في مكانه، كطفلٍ مذعور، ولم يثبته ـ هكذا ـ خوفها، أو صرختها، تلك، التي تُطلقها بمناسبة أو دون مناسبة، إنما ثبته وجهُها الذي انكشف أخيرًا، فهو لم يصنع لها رسمًا في خياله، ولم يفكِّر في ذلك من الأصل، فقد ظلَّت، هناك، مجرد فكرة، فكرة بعيدة، مغامرة ذاتية من طرف واحد، ليس إلَّا، مغامرة يكون الطرف الآخر فيها غائبًا وحاضرًا، في آن واحد، كالخيال، كالاستمناء، على العموم، هو تقبل ـ منذ البداية ـ أن يكون هناك طرف مفقود، مشتر وبائع بينما البضاعة غائبة، أما الآن، وقد أصبح للخيال وجه، لم يستطع منع نفسه من الدهشة.

شابة في منتصف العشرين، ينفرج فمها الواسع عن فكين

كبيرين، فيختصر الوجهَ كلَّه في ابتسامة بلهاء لا معنى لها، ابتسامة دائمة ولكنها لا تعبر عن السعادة، إنما تشي بقدر من العبثية، أو الاستخفاف بالحياة، وبالمبادئ والقيم، ورغم ذلك، فهي ليست دميمة، بل يمكننا أن نرى في ابتسامتها الإجبارية، تلك، نوعًا من الحميمية التي تذلل عقبات اللقاء الأول، دعوة للمحبة، وكرنفال للصداقة، فلماذا تخبئ تلك البهجة تحت طبقات السواد القاتم! لا بأس بالأنف الأفطس، لا بأس، إذا ما وُضِع في كفة أمام الأسنان الكاملة ناصعة البياض، أو أمام العينين الناعستين والبشرة التي في لون الكاكاو. أخذ يُحملق فيها حتى صاحت:

ـ أوووه... تُهت فين؟

لملم عينيه وتلعثم...

ـ ولا حاجة... أنا هنا.

ـ وأنا كمان هنا.

قالت وهي تغمز بعينها:

ـ ياللا بقى... راضيني.

مدَّ حنَّا وجهه مستفسرًا...

حكَّت إصبعي الإبهام والسبابة ببعضهما البعض...

- فلوس... آه... راضيني.

ينقبض قلب حنَّا، يشعر بالقرف والخجل معًا، منها ومن نفسه، يدس يده في جيب البنطلون، ويُفرغ كل ما فيه بين راحتيها، دون تدبُّر، بسرعة، وبطريقة حاول ألَّا تبدو مُهينة، أو فجَّة، كمَن يقول «هذا ثمنك» مثلًا... بكل وقاحة.

في طريق عودته إلى الشقة، حينما كانت صفية تمشي وراءه، فكَّر في الكيفية التي سيمد بها يده بالمال، إنه خجول، خجول جدًّا، ولا يعرف كيف يدفعون في مثل تلك الحالات، فكَّر في أن يدسَّه، دون أن تراه، في ملابسها.

- إيه ده؟

سألت وهي تُلملم شفتيها لتضم الفكَّين المتمردين في بوز ضخم، بدا كورمٍ غريب على وجهها، وراحت تحك حواف الأوراق النقدية الخضراء بين الإبهام والسبابة، وترفعها في مواجهة الضوء، لتتبين علامةً مائيةً تتوقعها.

ثم قالت بريبة، وهي تنظر له بقرف:

- إيه لِفلوس دي؟

- دولارات...

دولارات كثيرة، كان قد كسبها من عمله مع الأمريكان على الباخرة، نصيبه من البقشيش في شهور العمل المضني الماضية، مبلغ ضخم، ربما ما كانت واحدة، مثل صفية، تحلم أن تتقاضاه يومًا، فكم يأخذنَ عادةً في مثل هذه الأمور!

ـ مِيَّة... هات ميت جنيه.

قالت وهي ترد له دولاراته، بلهجتها الصعيدية الحادة، لهجة واحدة من القرى المنسية فوق الجبال، مائة جنيه، يا للغباء، إنها تمسك بيدها ـ الآن ـ المئات والمئات من الجنيهات!

تلعثم...

ـ لكن...

قاطعته بلهجتها الحادَّة:

ـ اسمع... أنا مش مرتاحة لك، هات لِفلوس.

دون كلام، أخرج حنًّا حافظته، وبحث عن ورقة فئة المائة جنيه، وما إن وجدها حتى أخرجها بسرعة وقدَّمها لها، أمسكتها بيدٍ، والدولارات باليد الأخرى، وقلَّبت نظراتها عليهما معًا، كأنما لتزنهما بميزان مجهول، ويبدو أن الورقة المصرية كانت الراجحة، إذ دسَّتها سريعًا في سيالة الإسدال،

ثم راحت تُقلِّب يدها القابضة على الدولارات وهي تتفحَّصهم باستهانة...

ـ وسيب دول كمان!

وألحقتهم بالمائة جنيه في سيالتها أيضًا.

شعر أنه يتعرض لعملية ابتزاز، لم يهتم بما فقده من مال، ولا حتى بالآثار النفسية السيئة التي تقبض على صدره، كان يهتم ـ فقط ـ باللحظة الآتية، فما فات مات، الآن، هو لا يريدها أمامَه، يشعر أنه في ورطة، وعليه أن يتخلَّص منها، ليتَها لم ترفع نقابها كاشفةً عن وجهها الخفيّ، لقد صارت واحدةً أخرى، غير التي توقَّعها في خياله، خياله الذي تشبَّع بكلاسيكيات القرن الثامن عشر، وبقصص العاهرات المنكسرات الحزينات الفقيرات المريضات، اللواتي يبعنَ أجسادهنَّ من أجل لُقمة أو مأوى أو دواء، لا بأس، إنها تجربته الأولى، التي سيعي بعدَها ـ بلا شك ـ أن المهنة تتطور، شأنها شأن كل المهن الأخرى.

أخطأ حنًّا، حينما تصوَّر إنها ترتدي ملابسها، تلك، خجلًا، على غِرار عاهرات ديستيوفسكي المنكسرات، أو حتى كما تفعل شحاذات أيامنا هذه في المواصلات العامة، حيث يمكن للمرأة أن تتسوَّل، بنقابها، دون أن تشعر بالخجل أو المرارة،

وبوجهٍ غير مكشوف، تمر صامتةً بين مقاعد الباص أو المترو، وتُلقي على حِجرك ورقةً تقول «أنا أرملة وأنفق على 9 أطفال»... لا، إنها ليست هكذا، إنما هي ترتدي تلك الملابس اقتناعًا، ببساطة، لأن الواجب الشرعي للمرأة نحو جسدها، أن تُخفيه، درءًا للفتن.

عظيم... لكن كيف يستقيم هذا مع ما تفعله؟

تمطُّ بوزَها العظيم وترفع كتفيها...

ـ عادي.

هكذا قالت لمنصور ذات مرة.

ـ عادي؟

سألها مستنكرًا.

ـ كيف «عادي» يعني؟

تقول ببساطة:

إذا ارتكبت إثمًا، فهذا لا يبرر لك أن تقترف كل الآثام، لأنه لو قُدِّر لك أن تسقط في الطين، فلن تغمر وجهك فيه أيضًا، وربنا غفور رحيم.

ـ الله الله يا شيخة صفية!

«الخير ليس خيراً كله، والشر ليس شرًّا كله، هناك مستويات وطبقات، منها الأعلى، ومنها الأدنى» قالت صفية. اعص سيدك ولكن لا تهرب منه، ولا تكابر، فالعبد العاصي خيرٌ من العبد الهارب.

يا لها من حِكمة!

إن ما بين إنسان وآخر من اختلاف، هو نفسه، ما بين حيوان وآخر ليس من فصيلِه، وهذا، في حد ذاته، أمر ضروري، حتى تستمر الحياة، فصفية في حِكمتها، لا تختلف كثيراً عن الدكتور دميان، بعكس ما يبدو لنا من خلاف، فكلاهما كان يتعامل مع السماء كما لو كانت دكّان بِقالة، هي تعتقد أن لها حسابًا مفتوحًا، وتقدم الرحمة على العقاب.

بينما يظن هو، الآخر، بدفتره الأصفر الصغير الذي يدوِّن فيه خطاياه، أن هناك ملاكًا متفرغًا لإحصاء ذنوبه، يترصَّده كمُخبر سريّ، ويمسك بقلمه مدوِّنًا على لوحه المحفوظ، لقد شتم فلانًا، فيكتب الدكتور دميان في دفتره بالتاريخ، لقد شتمت فلانًا، لقد كذب، آه أنا كذَّاب، لقد قام بالاستمناء، حصل فعلًا، لأن زوجتي وأم عيالي ماتت، فأفلتت منّي نظرة و....

كلاهما واحد...

(2)

ـ دي البلكونة!

قال ـ كأنه يفجِّر مفاجأة ـ وهو يُشير للشرفة.

ردَّت ببرود:

ـ آه... بلكونة.

قال:

ـ على النيل.

نظرتَ له بحيرةٍ ولم ترُد، فاستأنف:

ـ لسنين طويلة... كانت مقفولة.

ـ وفتحتها النهارده؟

سألته، فقال دون أن ينظر إليها:

ـ آه.

استلقت على السرير دون أن تخلع إسدالها أو حذاءَها، 122
بينما وقف هو عند باب الشُّرفة، كان متوترًا، يسيل على وجهه العرق، ولا يعرف ماذا يفعل.

- طيب، هات سيجارة.

قالت وهي تتلفَّت بضيقٍ نحو طبقات الغبار العالقة هنا وهناك.

ثم تمتمت مستنكرةً:

ـ وما فيش غير اليوم الأغبر ده تفتحها فيه؟

أشعلت السيجارة بأعواد ثقاب أخرجتها من صدرها، وسألت:

ـ انت ليه مش متجوز؟

لم يعرف بماذا يُجيبها، رفع كتفيه بحيرةٍ، وظلَّ ساكتًا، حيث بدا له السؤال نوعًا من التوبيخ، كأنها تنتقد أسباب قدومها إلى شقته، فقد كان عليه أن يتزوج، حتى لا يحتاج

إلى أمثالها.

ـ عندك شقة...

قالت وهي تفتح ذراعيها على اتساعهما، كأنما لتحتوي بهما الشقة كلها، ثم طوتهما مرةً أخرى فوق صدرها، وبدأت في تقليب نظراتها المتفحصة بين الأرض والسقف والحيطان بقرف قائلةً:

ـ صحيح زي الزريبة... بس شقة!

أراد أن يقول أن الشقة وحدها لا تكفي لأن تكون مبررًا للزواج.

لكنها سبقته، حيث كانت تتكلم بسرعة فائقة، تُطلق الأسئلة، دون أن يكون لديها رغبة في معرفة الإجابات، على كل حال، لم يكن حنًا يمتلك إجابات، كان سعيدًا بتجاوزها ردوده، إلا أن أسئلتها التي تحمل قدرًا من التأنيب، أشعرته بالصدمة أحيانًا.

قالت، وهي تقلِّب راحتيها أمامها في الهواء:

ـ شقة واسعة، على البحر، وعمارة كبيرة لها بواب!

قال:

قاطعته وهي تقطِّب حاجبيها، مضيقةً ـ لأقصى حدٍّ ـ حدقتي عينيها، كأنها تخاطب كائنًا صغيراً جدًّا، لا يمكن أن تراه بعين مفتوحة.

ـ انت ليه غريب؟

ـ أنا!

ـ آه... انت.

فلم يعرف ماذا يقول وتلعثم...

ـ آآآ...

ـ والكتب؟

سألت وهي تُعيد فرد ذراعيها على اتساعهما مرةً أخرى.

ـ الشقة كلها كتب!

قال وهو يرفع كتفيه بحيرةٍ:

ـ كتبي!

سألته:

ـ انت عارف فين أنا وأمي وإخواتي عايشين؟

قال:

ـ لا.

فقالت:

ـ طيب... اخلع هدومك.

ثم راحت تتأمله وهي تدخِّن.

بدا كحيوان غريب، حيوان متوتر محبوس في قفص، يتخبط في الفراغ بخجله، ويتصرف كأنه مجنون، بُص... إنه يخلع بلوفره الرصاصي المقيّح، بالضبط كأنه مجنون، يتطوَّح يمينًا ويسارًا، وينهج، يعافر لإخراج رأسه من رقبة البلوفر الضيقة، كقرموط وقع في شبكة، يشد البلوفر لفوق، فيبدو ـ وهو يخلعه ـ كأنه سينتزع الرأس أيضًا.

تحبس ضحكتها، لكنها لا تملك إلا أن تُطلقها، بعد أن ترى رأسه مُحرَّرًا، استغرق الأمر دقيقة واحدة، لكنها كانت طويلة جدًّا، خرج رأسه للدنيا، بعدها، بوجه أحمر، محتقن، وشَعرٍ منكوش...

ضربت كفًّا بكف وقالت:

ـ الله يخرب بيتك يا منصور!

بينما كان صوتها يختنق من فرط الضحك...

ليس بالملابس وحدها يصير الإنسان إنسانًا، إنما بالضحك أيضًا، فالإنسان حيوان ضاحك، وحيوان مُضحك أيضًا، وهو ينفرد بكلا الأمرين، الضحك والإضحاك، وحده دون سواه، لأن الحيوانات الأخرى لا تضحك طبعًا، ولا تُضحكنا كذلك، إلا عندما تأتي سلوكًا إنسانيًا، أو ما يشبهه.

راحت تضحك...

ولم يمنع انهماكها في هذا السلوك، الإنساني البحت، خيط رفيع من نور الذاكرة، أن ينبثق، ثم يمر أمام مُخيلتها كشريط سينمائي، رأت، وهي لا تزال تضحك، أمها تكسر كوز زير السبيل، لأن نصرانيًّا عابرًا شرب منه، قبل أن تستدير ـ ببطء ـ وتقذف بشقاف الكوز المسكور قائلةً: «إن رائحتهم عفنة». وتستطرد: هؤلاء النصارى، إنهم لا يستحمون، حتى بعد أن يُجامعوا نساءهم...

ـ كيف ستبدو رائحته؟

سألت نفسها، قبل أن تبتر ضحكتها على نحو مفاجئ، بأن دستها داخل بوزها الضخم، وضمَّته عليها جيدًا، فتخيل حنًّا أنها ستطلُب كوب ماء لتبتعلها، كان ينظر لها، بوجهه المحتقن الأحمر وشعره المنكوش، في خجل ودهشة، ويفكر في سؤالها عمَّا يُضحكها، لكنه وجد نفسه يُجاريها مبتسمًا،

على اعتبار أن ضحكها لفتة طيبة، يمكنها أن تفتح مجالًا للتلاقي، الذي من شأنه أن يخلق جوًّا مناسبًا لتوليد الرغبة الغائبة بعد الحوار العجيب الذي دار بينهما.

حيث كانت تنتابه عدة مشاعر متضاربة، القرف والرهبة والترقُّب والغضب والخجل، مع المزيد من تأنيب الضمير، أو ربما الندم، فضلًا عن الوهن الذي توغل في عظامه، والنمل الذي يسري في ساقه المصابة، والتشنج الذي يفتك بعضلات ساقه الأخرى، وكان يتحسس وجهه - من حين إلى حين - ضاغطًا بإصبعه في مكامن ارتعاش عضلاته، كأنه يرجوه الثبات أو يتوسل إليه ألَّا يفضحه، خاصة تلك المنطقة اللعينة، أسفل العينين، التي بدا أنه فقد السيطرة عليها تمامًا، ورغم ذلك كله، راح يعتصر ذاكرته، في محاولة مستميتة، لاستخلاص مشهد قريب أو بعيد، يُذكي به بصيص الإثارة الذي بدأ يخفت في داخله.

حالته، تلك، التي تمكَّنت صفية من أن تكشفها وهي في مكانها على السرير، جعلتها تبدو كطاغية، بصرف النظر عمَّن سيعتلي مَن، كانت، بظهرها المنتصب على الوسادة، وساقيها الممدتين باسترخاء على الفراش، تمسك بزمام الأمور، تزفر دخان السيجارة من أنفها الأفطس، ثم تنهمك في تأمله، وهو يتلاشى، كحلقات واهية يمتصها الهواء، كأن حنًّا، الذي

يرتعش أمامها، لا يعنيها، رغم أنه ـ أيضًا ـ كان يتلاشى، مثل دخان السيجارة، في العدم.

لكن، هذا لن يدوم طويلًا، فكما يقولون، دوام الحال من المحال، حيث بدأت صفية تشعر بشيء ما، غير طغيانها، أو ربما شعرت به، بسبب طغيانها، إذ انتابتها رغبة عارمة في أن تتشمم حنًا، الذي كان قد خلع قميصه أيضًا، ودت أن تدفن أنفها الأفطس في ثنايا لحمه، وتنشقه نشقًا يعبئه ـ بكامله ـ في داخلها، شعرت بذلك وهي تُفسح لجسدها مجالًا ليلتقط الشرر، الذي سرعان ما تحول إلى جذوة صغيرة بللت ما بين ساقيها بماء دافئ.

نهضت، فجأة، وخلعت إسدالها، نزعته، مرة واحدة، من عند رأسها، فاندهش حنًّا من حجم النقلة التي لم تستغرق إلا لحظة، لحظة واحدة، تمكنت صفية من خلالها أن تبدِّل عالَمًا بعالم، وثقافةً بثقافة، كأن بإمكانها أن تسيح عبر التاريخ، وتختصر مراحل تطوره، التي تعتبر الملابس أهم معالمها، في لحظة. وقف مشدوهًا وهو ينظر إلى صفية أخرى، أو ربما هي صفية نفسها، لكن بعد خروجها من آلة الزمن، ببنطلون جينز ضيق جدًّا، وتي شيرت ـ مطبوع عليه برج إيفل ـ بلا أكمام.

أججت هذه النقلة النار بداخله، حتى بدأ الدم يغلي في

عروقه، واندفع مرة واحدة في الشرايين إلى ما بين ساقيه، فجعل الكتلة الرخوة الراكدة بينهما تنبض، نبضات سريعة متسقة مع ضربات قلبه، قبل أن ينتصب ـ فجأة ـ ويتصلب، حتى كاد أن يخرق البنطلون.

اقترب خطوتين، فاقتربت مثله، كانا ينظران لبعضهما البعض، كأنما سيفترس الواحد منهما الآخر، عندما تجمَّدت خطواتهما ـ فجأة ـ على صوت صراخ يأتي من عند الباب، باب الشقة، الذي راح يرتج بقوة، حتى أوشك أن ينخلع، تحت القبضات المجهولة.

(3)

تخيل أنه يحدث لك...

أن تسمع خبطًا عنيفًا على بابك، وأصواتًا تصرخ...

ـ افتح... افتح.

فتفتح، لأنك لا تملك خيارًا آخر، خصوصًا، مع هذا العنف، غير المبرر، حيال الباب، الذي يوحي بأن القصد، أساسًا، هو تحطيمه، أو تحطيمك، أنت، من الداخل، فلا فرق، أنت هو، وهو أنت، نعم، فلا يمكن أن تنفصل عن مقومات وجودك، باب الفلك الذي تحتمي وراءه من الطوفان، الباب الذي تكون وراءه موجودًا، وقدامه ضائعًا.

تفتح، ليندفعوا إلى جوف الفلك، ويداهموا خطيتك الأولى...

البار مان المسيحي مع العاهرة المتدينة!

فضيحة...

132 لكن مَن هُم هؤلاء؟

هؤلاء الذين جاءوا ـ بجمعٍ كبير ـ كأنما ليقبضوا على لص، رغم أنك كنت معهم كل يوم، ولم يمدوا على بابك الأيادي، لكن ـ كما هو مكتوب ـ هذه ساعتهم...

هؤلاء؟

أنت تعرفهم، أو على الأقل، تعرف بعضهم.

نعم؟

دقِّق في صرخاتهم الغاضبة قليلًا.

أليست هذه صرخة سعاد الرفيعة الممطوطة، الأكثر حزنًا وفُجرًا وعُلوًّا، تلك الصرخة التي تعبِّر عن قهرها، أكثر مما ترغب في قهرك، هي سعاد، نفسها، البنت التي رأيتَ شبقها البِكر، هنا، فوق السطوح، في لحظات لا يصح أن يراها ثالث، يا للخسارة، آه لو تكلَّمت حيطان العمارة!

ـ كان بيتسحَّب كأنه حرامي...

يأتيك صوتها.

- ومن خوفه وقع من على السلم...

ثم ينطلق صوت صارخ لرجل موتور:

- السافل... حرامي الغسيل!

قبل أن يرج الباب رجًّا بقبضته الغليظة.

- افتح... افتح.

صوته تغيَّر، بلا شك، فالأصوات تتغيَّر، حسب الحالة المزاجية، فمن يصدق أن هذا هو صوته، الصوت نفسه، الذي سمعتَه، قبل ساعات، هادئًا وخجولًا، يطلب كيلوت زوجته الذي طيَّرته الرياح...

- حرامي الغسيل!

يا له من وصف حقود...

إلا أنه يهون، أمام تلك النداءات المرعبة، التي بدأت تتصاعد، فحتى هذه اللحظة، لم يتخيل حنًّا أن الطابق قد امتلأ - عن آخره - بالناس، سكان العمارة، والعمارات المجاورة، وصبيان البازارات، بالإضافة إلى العابرين، ممن تصادف مرورهم أمام العمارة، وقتئذٍ، فجاءوا ليتفرجوا.

إن فتح الباب ـ في هذه الأجواء ـ مغامرة غير محسوبة عواقبها، فثمة رائحة مشؤومة، هستيرية ومجنونة، تنبع فيما وراء الباب، بدأت تفوح مع فحيح هذا الرجل الذي تخيَّله برأس حية سوداء «ها ابتعدوا عن طريقي... أفسحوا» كان يقول ذلك، الذي يوحي بكثرتهم، بلا شك، وهو يتراجع إلى الخلف، ربما حتى يلامس ظهره الجدار، أو باب الشقة المقابلة، قبل أن ينطلق كالقذيفة بكتفه صوب الباب، والباب ضعيف... وقلب حنَّا أضعف!

ـ الخمورجي الكافر...

كان يصرخ.

ـ النصراني... منتهك الأعراض.

عندها ارتدى حنَّا قميصه، وفتح الباب.

(4)

في يومنا الأغبر هذا، استيقظ الأسقف على حلم مزعج، إذ رأى - في منامه - أن الكنيسة تحترق، حلم مزعج، صحيح، إلا إنه - أبدًا - لم يغيِّر من سلامه الداخلي، فمن واجبه، كرجل دين، أن يتمسك بتلك الطمأنينة، التي تُعد واحدة من مقومات وظيفته الخطيرة، بالإضافة إلى أنه كان يكره أن يضفي على أحلامه صبغة النبوءة، ولذلك، لم ينتبه إلى فأل الشؤم الذي لاح في الأفق مع ثورة الغبار، فضلًا عن أنه كان يعرف أسباب تلك الأحلام المفزعة، والكوابيس...

أسقف مدينتنا، الذي بلغ الخمسين منذ عدة أشهُر، بدأ يفكر في أمور جديدة، لم تكن ضمن قائمة حياته التي لا

تتغير، أمور كان يزداد مقدار وطأتها على رُوحه شيئًا فشيئًا، لدرجة جعلتها تتسرب إلى منامه أخيرًا، جاءته تلك الحالة، التي يسمح طابعها الفجائي أن نصفها بهذا الوصف، ما بين منتصف ليلة وضحاها، كان قد غلبه النوم، وقتئذٍ، وهو يقرأ في كتاب «البستان» الجامع لأحوال الرهبان، ساعتها، لم يتمكَّن من إمساك دموعه وهو يقرأ...

ـ أين أنا من هؤلاء الآن؟

سأل نفسه معاتبًا، إذ شعـر ـ فجأةً ـ أنه أضاع حياته، ليس لأنه ترهب، منذ عشرين عامًا، بل لأنه، بحسب رهبانية كتاب البستان، لم يكن قد ترهب من الأصل، الأمر لا يبدو لغزًا، إذا ما استعرضنا حياة الأسقف، منذ قبل ترهبه في منتصف الثمانينات، وقد كان وقتها على مشارف الثلاثين من عمره، إلى أن صار الأن أسقفًا، لكننا لن نفعل، بل سنتركه ـ هو ـ يستعرضها كيفما يشاء، حياته، تلك التي بدت كأنها لأحد غيره، في مرورها أمامه، الليلة، قبل أن يغفو فوق الكتاب، ويحلم.

في مجتمع القبيلة، كان العرَّاف زعيمًا، ليس لما له من شعبية، إنما لقدرته السحرية التي تمكِّنه من القيام بعدة أدوار، لا غنى للجماعة عنها، فهو خليط من الكاهن والفنان، العالم والفيلسوف، الطبيب والقاضي، ولكن قُدِّر

لتلك الوظيفة الخطيرة أن تتفكك، وأن يختفي العرَّاف من حياتنا، لأن الدنيا ـ ببساطة ـ تتطور، إلا في مدينتنا الصغيرة، التي يجب أن نعترف أنها مدينة غريبة، مثلها مثل كل المدن التى يُسمي أهلُها النهرَ بحرًا، ولا بُد من بعض الوقت، كي يدرك المرء لماذا تختلف هذه المدينة، وشبيهاتها، عن باقي المدن الأخرى في العالم، إذ كيف يمكن أن نصور للقارئ، في القرن الواحد والعشرين، مدينة لا تزال تحت سطوة العرَّافين، حيث لا يمكن لأحد أن يستخلص حقه، إلا بأحكامهم العُرفية، التي تعتبر قاطعة، ربما أكثر من أحكام القضاء.

وكان لا بد أن يجد هذا النظام دعمًا، لا سيما من الحكومة، التي طالما كان بوسعها أن تتفاهم مع شخص واحد، فسيكون من الغباء أن تُلقي بنفسها في بحر الجموع، بالأخص في أيام الانتخابات، وعلى ذلك، تحول الصعيد إلى قائمة طويلة من القبائل، التي لا تختلف، مع بعضها البعض، بشكل حقيقي، إلا في الاسم.

لكن، ثمة واحد من العرافين، لم يكن يعجبه دوره، الذي دُفِع إليه دفعًا، فما كانت هذه هي وِجهته، قَطّ، يوم أن قرر ترك هذا العالم لأهله، مبتغيًا له عالماً آخر، عالم تبدأ حدوده عند أعتاب الوصية، اذهب وبِع كل أملاكك وتعال اتبعني،

فباع، هذا الذي لا يُهمنا اسمه، صيدلية كان يملكها في إحدى المدن الساحليَّة، قبل أن يتنازل عن اسمه المجهول أيضًا، ويذهب للِّحاق بركب كارهي هذه الدنيا، هؤلاء الذين تبدأ حياتهم، بمثل ما تنتهي به حياتنا، صلاة الموتى.

138 إذًا، لقد ترهب، حقًّا وصدقًا، غير أنه لم يلبث إلا عامًا أو بعض عام، حيث تصادف أن يكون كرسي الأسقف في مدينتنا شاغرًا، فاختاروه، وكان عليه، بدلًا من أن يُدير صيدلية واحدة، أن يدير اثنتين، غير المستشفى والمدرسة ودار المسنين وملجأ الأيتام، بالإضافة إلى بعض الورش والمصانع الإنتاجية الصغيرة.

وفوق كل ذلك، واحد وخمسون ألفًا من المسيحيين، يتعلقون برقبته، باعتباره أباهم، فلا أحد غيره يرعى حياتهم، بكل تفاصيلها، منذ دخولهم إلى الدنيا، وحتى رحيلهم عنها، فقد بدا أن الدولة ـ نفسها ـ قد نسيتهم، أو اعتبرتهم جالية من غير المواطنين، ممن يجب اختصارهم في شخصه، واعتبرت قضاياهم ـ على بساطتها ـ ضمن قضايا أمنها القومي، فالنزاع الذي ينشأ بين الواحد منهم وجاره المسلم، ولو حتى على نظافة مدخل العمارة التي تجمعهما، يحقق فيه أعتى أجهزتها الاستخباراتية، أمن الدولة، الجهاز الذي همس واحد من ضباطه ـ يومًا ـ في أذن الأسقف:

ـ الانتخابات على الأبواب...

فعرف الأسقف أن ترميم سقف الكنيسة، الذي أوشك على السقوط فوق رؤوس المُصلِّين، مرهون بتأييد رجال الحكومة، تأييدًا يبلغ في مداه حدَّ الإشادة بهم في العِظات، بالإضافة إلى أنه لا ينسى كم الخدمات التي يقدمها له هذا الجهاز، ألم يتعقب الأشقياء الذين يفرضون الإتاوات على أبنائه من الصيادلة المسيحيين، ألم يُعِد له الفتاة، ذات الأربعة عشر عامًا، التي قيل إنها اختُطِفَت وأشهرت إسلامها على يد الجماعات المتطرفة، إذًا عليه أن يكون شاكرًا، وألَّا يحسب أنه حصل لأبنائه على حقوقهم، إذ هي محض خدمات، عليه أن يسدد أثمانها.

في نهاية يوم طويل، باهت وكئيب، بدأ برياح مغبرة وحلم مزعج، ينبغي أن تشكر الرب أمام فراش النوم كثيراً، قبل أن تطلق «آآآآه» عميقة في زفير طويل يطرد من صدرك كل الهموم، فهذه دنيا شريرة، كلها مشكلات ووجع قلب، وأحمق من لا يبحث فيها عن خلاص نفسه، قبل أن ينهمر الطوفان.

هكذا، دخل الأسقف إلى بيت خُلوته، وأغلق عليه أبوابه، وراح يحل عقدة القلنسوة، تلك التي استعارتها الرهبنة من ملابس الأطفال، إذ كان رباطها حول عنقه يحز على تفاحة

آدم البارزة، كان قد أوشك على أن يُنهي يومه بسلام، حيث بدأ في قراءة المزامير، كعادته، قبل أن يستودع لدى الربِّ رُوحَه وينام، حينما سمع أحدهم يطرق باب غرفته، وهذا الأمر يضايقه جدًّا، فلا شيء أبدًا، في الدنيا كلها، يستدعي قطع خُلوته.

خرج وهو مُستاء...

ـ خير؟

ـ الناس في الشارع نازلة ضرب في شاب مسيحي.

ـ والسبب؟

ـ مسكوه مع واحدة مسلمة في بيته.

شعر الأسقف بالغضب، ليس من الخبر العاجل الذي استدعى خروجه، بل من هذا الفم اللاهث الذي التقطه منه، الفم الذي يتكلم بسرعة توحي بالخطورة، رغم أنه لم ينطق إلا بالعبث، أمِن أجل هذا الهراء يقطعون عليه خُلوته!

صرخ:

ـ وما لي أنا بالموضوع؟

اتسع الفم بدهشة ـ للحظة ـ ثم ضاق مهمهمًا:

ـ يا سيدنا... هُم... يمكن... قالوا... يقتلوه!

ويبدو أن الأسقف لم يسمعه، لأنه صفق الباب في وجهه، ودخل.

الجلجثة

(1)

حينما ينتهي هذا اليوم، ولن يطول ذلك، لأنه ـ كما نرى ـ في ساعاته الأخيرة، سيجد حنًّا نفسه مُكوَّمًا على أرض قاسية، سوداء ورطبة، وسيبدو ـ لمن يراه ـ أنه ميِّت، لولا تنفُّسه غير المنتظم وتعبير الإنهاك اللا نهائي في عينيه، على كل حال، لن يتمكن أحد من رؤيته، فلم يكن هناك غيره، لذلك لم يجد مَن يسأله عمَّا إذا كان في حُلم، مثل باقي أحلامه الكابوسية الثقيلة التي يدوِّنها في قِصص، أم هو في واقع لن يتمكَّن من كتابته مطلقًا.

هكذا، اضطر لأن يطرح السؤال على نفسه، فور أن فتح عينه على الأرض السوداء، التي بدت له ـ للوهلة الأولى ـ

كأنها إسفلت، غير أنها لم تكن إلا خرسانة مُتسخة بالوحل.

النور الرمادي الواهن الواقف على حافة الكوَّة الضيقة في أعلى الحائط، كأنما ليتشاور مع نفسه قبل الدخول، أخبره بأن الفجر قريب، ففرح، وقام في الحال ليعتدل مرتكزًا على ذراعيه، إلا أنهما خاناه، فسقط على وجهه، من جديد، وهو يعوي من الألم، كان أكثر ما يؤلمه هو فكه الأيسر، الذى يتذكر أنه تلقَّى عليه لكمة قاسية، فور أن فتح الباب، كانت الأشد من بين اللكمات التي نالها فيما بعد. مِمَّن كانت اللكمة؟ لا يعرف.

لكنه يتذكر أنها طرحته أرضًا، ثم تبعتها الركلات التي يتناسب تأثيرها مع حجم ونوع حذاء صاحبها، فقد كانوا كثيرين، ولم يدخلوا معًا مرةً واحدةً، بل على دفعات، يدخلون تاركين الباب مفتوحًا، ليدخل غيرهم، وغيرهم، كثيرون ممن لا يعرفهم حنًّا قد دخلوا، فلم يعُد يميِّز وجوهَهم ولا أصواتهم، لم يعُد يميِّز إلا صوت البكاء المكتوم، الذي تُطلقه صفية بنهنهة لاذعة، تخرج من قلب يحترق.

ـ أنا كنت جاية أدوَّر على بيت خالي!

إهئ إهئ إهئ....

ـ هو اللي شدّني وقفل الباب

إهئ إهئ إهئ....

لم يُصدِّقها أحد، طبعًا، فمن يمكنه أن يصدق هذا، لفت كذبُها نظرَ أحدهم، فتوجه إليها مغتاظًا، وبحركة خاطفة رفع إسدالها الفضفاض، الذي لبسته على عَجَلٍ قبل أن يفتح حنًّا الباب، نظر الرجل إلى البنطلون الجينز الضيق، الذي ظلَّ في مكانه ولم يُمس، ثم هوى بكفِّه على وجهها وهو يبصق صارخًا:

ـ يا شرموطة!

إنه دائمًا شيء مُثير، أن ينكشف كذب خصومك، وأنت صامت، حتى ولو كنتَ في وضع لا يؤثر كذبهم أو صدقهم فيه كثيرًا، لذلك شعر حنًّا بارتياح فورَ سماعه لصرختها المعتادة...

ـ يا خرابي!

بصِدق صرخت هذه المرَّة، بما يعني الخراب فعلًا، قبل أن تتهاوى من تأثير الصفعة، فتُحرك ـ بفعل إسدالها المتطاير ـ نسمة هواء منعشة، استقبلها حنًّا على وجهه العرقان، لحظة سقوطها إلى جواره على البلاط.

لم يكن ثمة خراب أكثر من أن يرى بيتَه مُستباحًا، لدرجة أنه كان على وشك أن يطلب من أحدهم غلق الباب، حينما

جذبه من ياقة قميصه ودفعه خارجًا ناحية السلم، ثم راح يجرّه جرًّا على درجاته، لم يفكِّر حنًّا إلى أين سيأخذونه، بقدر ما تساءل عن جدوى ترك باب الشقة مفتوحًا، لكل من يفكر بالدخول، على الرغم من رحيله، هو صاحبها، إلا أنه تبيَّن مدى سخف تفكيره، وسكت، فها هُم يُخرجونه من بيته، بقميص مشقوق وعينين كالدم، مثل شاةٍ مُساقَة للذَّبح، نحو شارع لا يعرف إلا الله ما ينتظره فيه.

بينما هو يُفكر في شقته وبابها المفتوح، يا لبؤس التفكير! كان عليه - بالأولى - أن يفكر في المُتفرجين المنتظرين عند مدخل العمارة، هؤلاء الذين لمَّا تخيَّلهم، مرَّت عليه وجوه زملاء الباخرة، والمتر عاطف، وتساءل عمَّا إذا كانوا من بينهم، باعتبار أن الباخرة - الراسية قدَّام العمارة - لم ترحل بعد، وفكَّر في أنهم ربما سيُنكرونه، فلن يجرؤ واحد منهم على نطق اسمه، حتى لا يناله نفس العقاب، سيُخبِّئون وجوهَهم ويقولون «إننا لا نعرف هذا الرجل» وسيكررون هذا - لو أمكن - ثلاثَ مرَّات! كان يبحث عن وجوههم، ليرى ماذا سيفعلون.

لكنه لم يجد إلا وجوهًا لا يعرفها، حمراء مكسوَّة بالغضب، تتمايل متأهبةً بالعصي، وتُطلق السِّباب كأنها تتنفَّس، وجوه لم توطِّد، في داخله، إلا عظيم احتقاره لبني البشر، فمباركةٌ

أنتِ أيتُها العاهرة، في الجموع، ها قد صِرت الآن أختًا للجميع، ينتفضون لشرف خِمار نقابكِ، مُستبدلينَ أنفسَهم بأخٍ حقيقيٍّ لم يتمكَّن ـ يومًا ـ من أن يُلملم أفخاذك المتناثرة على الأرصفة، فطوبى لكِ، أيتها الجاهلة، لأن بك تكتملُ النبوءات.

عند مدخل العمارة، وجد سعاد، هذه التي سلَّمته، واقفةً تبكي بحُرقة، لقد كانت تُحسن الظن في رحمة النار، لما أطلقت شرارتها الأولى، معذورة، فمن كان يتصور هذا، إنها تكتوي ـ الآن ـ بلهيب ندمها، ولكنها لم تفكِّر بعدُ في حبل يهوذا، بل اندفعت ـ حينما رأته ـ كلبوةٍ مفترسة، صفعت الرجل الذي يُمسك بياقته صفعةً مدويةً، وحاولت بقواها الخائرة أن تخلِّص حنًّا من قبضته، وهي تشب على أطراف أصابعها، حتى تلتقط أذنه بين أسنانها، إلا أن الرجل، لم يمكِّنها من أن تفعل، فتراجعت يائسةً، وراحت تسبّه:

ـ يا ابن الكلب...

يبدو أنها لم تكن تقصد هذه النهاية، ولا كل هؤلاء ـ أيضًا ـ يقصدون، إنهم ـ حتى ـ لا يعرفون ماذا يفعلون، فلم يكن الواحد يتصرف وفقَ رأسه، بل يتصرفون جميعًا وفقَ رأس واحد، رأس شيطاني يُلغي رؤوسهم، ويختصرها جميعًا في ذاته الشريرة، فبين كل هذه الجموع، لا مكان للتفكير المفرَد

المتمهِّل، بل للانسياق الأعمى وراء القطيع، حيث يتحول الإنسان إلى ما دونَه، شيئًا فشيئًا، إلى أن يُستبدَل في النهاية بمسخ فظيع.

لكن واحدًا منهم، أبى أن يكون مسخًا، وحاول أن يسترد
150 عقلَه المسلوب، فانطلق يصرخ فيهم:

ـ يا جماعة، يا جماعة...

لم يكن يعرف أن رأس الجماعة بلا آذان، وأن صوته لن يُسمَع وسط كل هذا الضجيج.

ـ يا ناس، كفاية...

ولكنه وجد ـ أخيراً ـ من يسمعه، فما كاد يُكمل النداء، حتى فوجئ بدفعة قوية، جعلته يطير لينتهي إلى حيث يكون خارج الجموع.

ـ استحِ...

قال الذي دفعَه لائمًا.

ـ افترض إنها أمك...

وسكت لحظةً، قبل أن يسأل منفعلًا:

ـ أترضى أن يدنِّسها نصراني كافر؟

(2)

سيارة ماركة تيوتا، بلون أزرق داكن، مُجهَّزة ـ في الأصل ـ للنقل الخفيف، إلا أن الصندوق الحديدي الذي ركبوه لها في المؤخرة، حوَّلها لسيارة شرطة، ظهرت فجأة، كأن السماء انشقَّت وأنزلتها، هكذا، وُجِدَت واقفةً بعرض الشارع، وعلى الرغم من ضيق صندوقها، إلا أنه سرعان ما أخرج من جوفه عشرين جنديًّا، يقفزون قفزًا، بخوذات ودروع، نصفهم، على الأقل، يحملون البنادق الآلية، التي راحت رصاصاتها تنهمر فوق الرؤوس، بصوت هادر.

بينما انهمك النصف الآخر في الجري وراء الجموع بالعصي الغليظة، فبدوا جميعًا كأنهم أغنام تتشتَّت، ولم

يستغرق الأمر إلا عشر دقائق، حتى صار شارع الكورنيش واسعًا ومهجورًا، وسكن الهواء تمامًا، فما عاد يحمل إلا لُهاث العساكر، وهؤلاء، إذ لم يجدوا ما يفعلونه في هذه اللحظة، راحوا يتلفتون في الخلاء منبهرين بما صنعوا، قبل أن تقع عيونهم على حنًّا، الذي لم يُسعفه جسدُه المنهَك على الركض، فانكفأ بوجهه منبطحًا على الأرض.

وكان قد ذرف للتو آخر دمعة من دموعه الحقيقية، دموع الآسى المُرة، التي سبق أن ذاق مرارتها آدم المطرود، وهو يخطو خطوته الأولى فوق العتبة الفاصلة بين الجنة والأرض، كان يأمل في الصعود إلى بيته، فحسب، حينما ينتهي هذا اليوم المشؤوم، ساعتها، سيُغلق بابَه عليه، ولن يفتحه أبدًا.

ـ انت حنًّا؟

سأله أحدهم، فهزَّ رأسه.

ـ أنا هو.

حملوه، وألقوا به في صندوق السيارة، كان مثل كيسٍ من القطن بين أياديهم، إلا أن القطن لن يتألم عند سقوطه على الحديد، أو يصرخ من عمق أعماقه، كما فعل حنًّا، عندما قذفوه داخل الصندوق، قبل أن ينحشروا جميعًا فوقه

بأحذيتهم الثقيلة، وتنطلق السيارة بصوت سارينة إنذارها الفاضح.

قسم الشرطة ليس بعيدًا، إنه في منتصف الطريق، بين عمارة الخبراء ودكان منصور، كان حنًّا يمر من أمامه كثيراً. على سبيل المثال، مرَّ اليوم أمامَه مرتين، مرةً وهو يحجل بساقه المصابة، للذهاب إلى الدكان، ومرةً وهو يُجرجر قدميه وراء صفية، للرجوع إلى الشقة، وإن أُتيح لنا أن نحتسب، هذه، كمرة ثالثة، فيجب علينا أن نميِّزها بأمر مهم، وهو أنها المرة الأولى التي يدخل فيها من بابه الحديدي العتيق، فقد تصادف ألَّا يكون في حاجة إلى تلك البناية الكالحة، طوال سنوات حياته، لأنه ببساطة، لم يسبق له أن أشتكى أحدًا، ولم يسبق لأحد ـ كذلك ـ أن شكاه.

تركوه برفقة حارس، طويل جدًّا وخطوته واسعة، مما جعل حنًّا يجري ـ تقريبًا ـ حتى يُجاريه، كانا يمران بجوار حجرة في الطابق الأرضي، مكتوب في يافطة نحاسية على بابها، البلوكامين، عندما استوقفهما واحد، قصير وممتلئ، ولا يزال شابًّا، بعكس ما ظهر لحنًّا في الوهلة الأولى.

كان يرتدي بدلة صوفية مخططة برباط عنق عريض، ويبدو أنه لبسها على عجل، فسوستة البنطلون مفتوحة، وواحد من أزرار القميص مربوط في غير مكانه، بلا مقدمات،

اقترب منهما وهو يلهث، أخرجَ من جيبه علبة سجائر، قدم واحدةً لحنًّا، وأخرج واحدةً لنفسه، ثم مدَّ يده بالعلبة كلها إلى الحارس، وبينما يُشعل لحنًّا سيجارته، كان الحارس يُحصي عدد السجائر بهزات صغيرة متتالية من رأسه.

ـ سيجارتين... ناقصة سيجارتين!

قال الرجل السمين بوجه ممتعض، فرفع الحارس كفًّا مبسوطِ الأصابع.

ـ لا... خمسة.

ـ وأنا تأخرت عليك؟

سأل الرجل مستنكرًا، فأجاب الحارس بلا رويَّة:

ـ إنت ندل.

وعندما حدجه الرجل بنظرة قاسية، بدأ الحارس يفسِّر هجومَه:

ـ من أسبوع... فاكر؟ مشيت على طول، ولا حد شافك.

وضع الرجل يده في جيب البنطلون وأخرجها بورقة فئة عشرة جنيهات، ثم قدَّمها للحارس، الذي بدوره رفعها إلى رأسه شاكرًا، ثم دسَّها في جيبه وهو يضحك، بأسنانه السوداء

غير المنتظمة، وبصوته الجهور، قائلًا ببلاهةٍ عزَّزها طولُه المُفرط:

ـ انتم خواجات... أخخخخ... مع بعض... أخخخخ... أطلع أنا منها.

وانصرف بخطوته الواسعة.

كانا يتكلَّمان، وكأن حنًّا لا يقف في المسافة الفاصلة بينهما، والحق، إنه كان فعلًا غير موجود، فقد ذهب مع السيجارة إلى بعيد، وراح يمتص دخانها بنهم، وهو يشعر أنه لا يذهب إلى الرئة، بل يخترق الدماغ مباشرةً.

أشار الرجل برأسه إلى حيث اختفى الحارس، وقال غاضبًا:

ـ ولاد كلب، لا يخدمونك إلا بـــ... (حكَّ الإبهام والسبابة معًا).

ثم اقترب بوجهه حتى كاد يُلامس وجهَ حنًّا.

ـ أنا محام.

قال مُقدِّمًا نفسَه، وحينما لاحظ عدم اكتراث حنًّا، قال أنه يعرف والده الدكتور دميان، زمااان، في المرحلة الابتدائية، كان يُدرِّس له الألحان في الكنيسة، وأضاف:

ـ رجل عظيم... ويحب الخدمة.

وقال أيضًا أن هذا مبرر كاف للنزول من بيته، في هذه الساعة، بعد سماعه للخبر، ثم راح يكلم شخصًا وهميًّا وهو يقلب راحتيه وينظر إلى الفراغ، كأنه يمثل، للتأكيد على رد فعله المتعاطف.

156 ـ حنّا! لا يمكن... ابن الدكتور دميان؟ لا... يمكن واحد غيره!

عند هذا الحد، وبعد أن ألقى بعقب السيجارة بين قدميه، بدأ حنًّا يشعر بسخف كل ما يحدث حوله، وبالملل من هذا المعتوه الذي لا يعرف ماذا يريد منه بالضبط، لقد كان مُتعبًا، وقميصه مقطعًا، يقف حافيًا بعدما فقد حذاءَه، الذي لا يعرف أين أو متى اختفى بالتحديد.

ـ أوووف!

زفر من عمق أعماقه...

فقال المحامي، وهو يُضيِّق عينيه:

ـ مسكين... أنا حاسس بتعبك.

ثم هرش في شعر رأسه الخفيف، قائلًا:

ـ القضية فشنك.

وراح يشرح له القضية، من وجهة نظره القانونية، قائلًا إنها ليست لها وجود من الأصل، فهو لم يُضبَط متلبِّسًا، وليس هناك قانون يمنعه من أن يستضيف كائنًا من كان في بيته، بل هو في الحقيقة المجني عليه، وطلب منه أن يتمسَّك بذلك في أقواله بالنيابة، قائلًا أنه سيُفرغ نفسه تمامًا لحضور التحقيق معه كمُحام، وأنه إنما يفعل ذلك، فمن أجل رباط المعمودية الواحدة الذي يجمعهما...

ـ الخطورة كلها هنا...

وصنع من كفِّه المبسوط لحيةً تحت وجهِه السمين، هامسًا:

ـ الجماعات.

(3)

في الطابق الثاني للقسم، أوقفوه أمام أحد الأبواب المُغلقة، في طرقة طويلة، يتقرفص عند نهايتها حوالي اثنا عشر شخصًا، بنظرات ساهمة وجلابيب مُمزقة، ولا أحد فيهم كان بإمكانه أن يمدَّ يده ليهش الذباب الذي يستقر على عينيه. بدا منظرهم غريبًا، لأن الطرقة كانت طويلة بما يكفي ألا يتكدسوا فوق بعضهم البعض، هكذا. • 159

على العموم، كان حنًّا بعيدًا عنهم، فضلًا عن أنه في حال لا يسمح بالتفكير فيمن سواه، وهذا سبب كافٍ حتى لا يكتشف سر ظهورهم ككومة من اللحم البشري على هذا النحو، لأنه لن يرى طرف الحبل القصير الرفيع، الذي بالكاد

يظهر تحت مؤخرة أحدهم، ثم يُوجد ـ في موضع جديد ـ ملتفًّا حول رقبة آخر، ويتجاوزه ليظهر حول ساق الرجل الثالث، كأنه شجرة لبلاب صغيرة، كانوا جميعًا مربوطين في فرعها النامي.

160 لحسن الحظ، لم يلحظ حنًّا شجرة اللبلاب، هذه، وإلا كان قد سقط مغشيًّا عليه، على كل حال، كان لديه من القوة ما مكَّنه من الوقوف طويلًا، وطويلًا جدًّا في الحقيقة، لمدة تجاوزت ثلاث ساعات، وقف، هكذا، وحده، حيث بدا أن أمره لا يهم أحدًا، لكنه شعر ـ أخيرًا ـ بالتعب، فراح ينسكب بالتدريج على الأرض، وهو يمسح بظهره الحائط، حتى لامست مؤخرته البلاط البارد، فشعر براحةٍ ما بعدها راحة، خصوصًا، وهو يثني ركبتيه، شيئًا فشيئًا، حتى لامسا صدره، حينما اقتعد الأرض تمامًا، فلف حولهما ذراعيه، وأرخى فوقهما رأسه، وراح يفكر...

إنه، بالرغم من كل شيء، يمكنه أن يستمتع، يمكنه أن يعيش اللحظة الآنية، بكل ما تحمله من مفارقات، وبأقل القليل، في سعادة، فما عاد ـ الآن ـ يشعر بالمذلة، ولا بالألم أو العطش أو الخوف، بل حتى زنوخة فمه المحروم من السيجارة، لم يعُد يحس بمرارتها الآكلة، كان رائقًا جدًّا، لدرجة أنه استوقف نملةً ـ من النوع الكبير ـ مرت بجانبه،

وراح يُداعبها صانعًا بكفه حاجزًا يقطع مسارها، حتى إذا ما غيَّرته النملة، عاد وقطع مسارها الجديد، كان على وشك الضحك، هذا الفعل الإنساني النبيل، عندما انفتح الباب أمامه فجأة...

ـ بتعمل إيه؟

زعق الوجه الأحمر المتدفِّق بالعافية، ولم يرُد حنًّا عليه، إلا بالنهوض من على الأرض، حتى صارا وجهًا لوجه، فكرر الرجل سؤاله متكئًا على الحروف، وهو يهز رأسه بهدوء مَن يحاول السيطرة على نفسه...

ـ بـ تـ عـ مل إيــه؟

لم يرد حنًّا كذلك، لأنه ببساطة، وجد أن السؤال ثانويًّا جدًّا، ولا يعني ـ في مُجمله ـ شيئًا، بل ليس له صلة ـ من الأساس ـ بأسباب وجوده في هذا المكان. أشار له الرجل أن يقترب، فاقترب، أمسكه الرجل بياقة قميصه الذي اهترأ جدًّا، وسأله بهمس في أذنه:

ـ انت أهبل؟

تسرب السؤال إلى داخله، فأحس أنه فعلًا أهبل، إذ كيف يمكنه أن يصف نفسه، وهو على هذه الصورة، رجل ناضج منكسر حتى المذلة، بقدمين حافيتين وملابس ممزقة

وملطخة ببقع الدم والوحل، لسانه أخرس لا يجد ما يتكلم به، خاطئ منبوذ من عيون الجميع، وأهبل يلعب مع النمل على البلاط، في غير مُبالاة بكل ما حوله!

كان هناك رجلان يتحدثان، عند الباب مباشرةً، امتدت من بينهما يد وأمسكت بمعصم حنًّا، واتضح ـ بعد ظهور صاحبها ـ أنها لشاب، ربما يصغر حنًّا ببضع سنوات، له شارب مهذب دقيق، قال:

ـ تعال... تعال.

فتركه حنًّا يقوده، إلى أن أوقفه في المنتصف تمامًا، ولحظتها أدرك مدى الاتساع الذي تتميَّز به الحجرة، إلا أنها بدت، رغم ذلك، ضيقةً على الموجودين فيها، فقد كان عددهم كبيراً جدًّا، ولأنه غير قادر على التركيز، لم يتمكَّن حنًّا من إحصائه، كانوا يتجمعون أزواجًا، فيما عدا اثنين، واحد يجلس وراء المكتب الكبير، والآخر يجلس تحت النافذة، وكانوا يثيرون جميعًا شيئًا من الضوضاء، في حديثهم مع بعضهم البعض، ولكنهم سكتوا تمامًا فور دخوله، مما أربك حنًّا، الذي لا يحب أن يشعر أنه مُراقَب، فقد كان يدرك أن نظراتهم عليه، أما هو فوقف منتظرًا، عيناه تنظران إلى الفراغ، نحو نقطة بعيدة عن عيونهم جميعًا.

ـ ها يا عريس؟

قال الرجل الجالس وراء المكتب مخاطبًا حنًّا...

ـ ها؟ احكي...

لا يعرف ماذا يحكي، لذلك، وقف صامتًا، فتطوع واحد يقف بجوار المكتب للشرح، كان ينظر إلى حنًّا من فوق لتحت، قبل أن يبدأ في هز خصره للأمام وللخلف، هزات عنيفة وسريعة، في إيحاء جنسي ملحوظ، قائلًا:

ـ كانت ليلة حلوة؟

ضحكوا جميعًا، لا بسبب الأداء الماجن والمفتعَل لزميلهم، في حد ذاته، لكن لأنهم يدركون تمامًا أنه يُمثل دور المهرِّج، لذا وجب التشجيع، حتى لا يظهر أمام نفسه كأحمق لا يُبالي به أحد.

ـ هيه؟ ليلة حلوة... مش كدا؟

زعق مكررًا سؤاله، بعد أن كفَّ عن هزٍّ خصره، ثم حلَّ توكة حزامه، وسحبه مرةً واحدة من البنطلون، وراح يلوِّح به في وجه حنًّا، على اعتبار أنه سيتحول إلى سوط، إذ ما أصرَّ حنًّا على صمته...

ـ ها... انطق.

لكن، بماذا ينطق!

إنهم لم يسألوه سؤالًا مباشرًا، فماذا يقول؟

هل يحكي لهم ـ مثلًا ـ عن كل ما حدث له اليوم؟

الإجازة المتعثرة، الكيلوت العجيب، المدرِّس وحسين، الدكان والأسد الذي يلتهم بني آدم، منصور وصفية، ثم الهجوم الهمجي، الضرب والإهانات والجرجرة في الشوارع، و.....

«هُو ذا أنا معكم الآن»...

يقول في النهاية، وهو يفرد ذراعيه، على اتساعهما، في منتصف الحجرة...

«أنا معكم، ولا أعرف سببًا لذلك، فلماذا يحدث كل هذا؟»

ولكنه ـ في الحقيقة ـ لم يقل شيئًا مما فكَّر فيه.

لقد ظلَّ صامتًا...

ـ الظاهر إنه مكسوف.

قال أحدهم من خلفه، فمنع حنًّا نفسَه من الالتفات إليه، حتى لا يحسبوا تلك الحركة اعتراضًا، في الوقت نفسه، انحنى الجالس وراء المكتب، ليفتح درجًا من الأدراج، أخرج قطعة قماش من الصوف الأسود، وألقى بها إلى أقربهم إليه، قائلًا:

ـ كسوفه ها يمشي لو ربطناها على عينيه...

وقعت الخرقة السوداء على كتف أحدهم، فالتقطها، واقترب بهدوء وصمت من حنًّا، وراح يلف الخرقة حول عينيه، وحينما أحكم رباطها من الخلف بقوة، انسحب كل النور، فما عادتا عيناه تريان شيئًا إلا السواد...

قال صوت بعيد:

ـ ها... كيف الحال؟

الحال أنه يحتاج لبعض الوقت، حتى يتأقلم مع هذا السواد، لكنه بوغت بأحدهم، قام بسرعة من مكانه، فجأة، كأنما أغرته العصابة السوداء، وانهال على وجه حنًّا صفعًا، وهو يصرخ:

ـ رد... انطق.

وبما أن حنًّا لا يرى شيئًا، فإن الصدمة كانت أشد وقعًا من الألم، حيث شعر أنه مُحاصَر، ولا مجال أمامه للخلاص، وتخيَّل ـ ولا يعرف سببًا لذلك ـ أنهم سيتناوبون على صفعه، ثم يطلبون منه أن يخمِّن، من هو الذي ضربه.

سأل صوت:

ـ بتشتغل إيه؟

وبمجرد أن سمع حنًّا السؤال، لوَّح بيديه أمام وجهه منزعجًا، في محاولة تلقائية لتفادي صفعات وهمية، ثم هدأ حينما لم يجدها، وقال بصوت واهن:

ـ بار مان.

ـ آهااا... قلت لي... بار مان.

قال الجالس وراء المكتب ساخرًا، الذي، وإن كان حنًّا لا يراه، إلا أنه قد عرف نبرة صوته، وتمكَّن من تمييز ما بها من سخرية، بل تخيَّله وهو يجلس وراء المكتب مسترخيًا في وضعية مائلة، وساقاه ممددتان إلى الأمام، والسيجارة بين شفتيه...

ـ يعني بتشتغل في الخمرة!

سأل صوت في بلاهة منقطعة النظير، فأجابه حنًّا بالرغم من ذلك...

ـ آه.

نعم، هو يعمل في الخمور، ومن حُسن حظه، أن يكون كذلك، فالتحاقه بالعمل في هذه الشركة، جاء في مصادفة سعيدة، لم يكن يقصدها، إنها ـ كما وصفها هو في هذا اليوم ـ منحة من السماء، فهذه الشركة هي الوحيدة التي قبلته،

بعد أن طاف حول عشرات الشركات يطرق الأبواب، قبلته بمجرد أن ترك لهم اسمه، فورًا، وبلا اختبار، أو شهادات خبرة، أو حتى وساطة من ذوي النفوذ، فلم يذهب إليهم إلا مجردًا، على اعتبار أن شهادة الفلسفة لا تعني شيئًا، فمن ـ في هذه الأيام ـ يمكنه أن يجد عملًا، بكل هذه السهولة.

في أول الأمر، لم يطلب عملًا في البار، كان يعرف أن هناك أعمالًا مكتبية يمكنه القيام بها، استقبال النزلاء الأجانب في المطار على سبيل المثال، أو تفريغ رسائل الحجز من البريد الإلكتروني، أو إرسال البريد الورقي واستقباله.

لكنهم كانوا يحتاجون بار مان، وليسوا في حاجة إلى هذه الخدمات، وعندما «فَرّ» المدير طلبات التوظيف بين يديه، وجد عشرة يطلبون الوظيفة، أقلهم خبرةً عمل بار مان في الشيراتون لخمس سنوات، ثم وجد في النهاية طلب حنًّا الهزيل، فمد يده والتقطه، قرأ الاسم وهزَّ رأسه قبل أن يقدمه للسكرتيرة، قائلًا:

ـ حنًّا دميان... هاتوه.

وقبل أن تستدير السكرتيرة لتنصرف، قدَّم لها باقي الطلبات...

ـ في صندوق الزبالة.

كان يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس، لقد صنع خيراً كثيراً، بحسب الفتوى التي أفتاها شيخُه ليلةَ أمس، الليلة التي فاتت، بالتحديد، بعد أن قدَّم حنَّا أوراقه، يا كريم يا رب. لقد قال له الشيخ «الفندق الذي تديره يعمل في الخمور، وأنت مضطر لذلك، فهذا حال السياحة، رزقك وأكل عيشك، لا بأس، طالما لا تقدمها بنفسك، ولا تلمسها يداك، ولا تبيعها إلا للأجانب، وهم كفار، ولكن لا تستعِن في هذا العمل بالمسلمين، فتكون ممن يدفعون المؤمن دفعًا إلى المعصية، لأنه يسقيها، وهذا حرام».

حقًّا... هذا حرام!

ـ والله العظيم حرام...

هكذا كان يصرخ المتر عاطف، كلما وجد حنًّا عند الكوانتر، حرام، شباب كالورد، اختبرتُهم بنفسي، رفضوهم جميعًا، ولصالح من؟ لصالح واحد لا يقبل التعليم، ولا يعرف الفرق بين الويسكي والواين، كأس الكوكتيل يقدم فيه بيرة، ومياه الشرب في فناجين الشاي... حرام.

ـ حراام عليك.

صرخ الذي تهتَّك ـ قبلًا ـ بهز الخصر.

ـ هي البلد ناقصاك؟

قال زاعقًا وهو يلوِّح بحزامه الجلد في الهواء.

لم يعرفه حنّا من الصوت، برغم شكِّه في الصفير الواهن الذي يصدره الهواء عندما يلوِّح بالحزام في فراغه، إنما تأكد من معرفته تمامًا حينما نزل الحزام نفسه على رأسه مرةً، وكتفه مرةً، وساقه مرةً، ثلاث جلدات متتاليات، لاحقهنَّ حنّا بيديه المرتعشتين حيثما ذهبنَ فوق جسده، فالحزام أعمى، وحنّا كذلك، إذ لم يتمكّن من صدِّ واحدة منهنَّ، قبل وقوعها، لأنه لا يرى، فكان يضغط على مكان الألم، قابضًا عليه بقوة، فقد كان موجعًا جدًّا، لدرجة أنه أراد أن ينزع العصابة من عينيه، لا لشيء، إلا لرغبته الشديدة في أن يبكي، فربما خففت الدموع هذا الوجع الأعمى...

ـ هنا، في بلدنا، الناس أنواع...

قال صوت، ثم سكت لحظةً، وأضاف:

ـ ولازم تعرف نوعك بحق وحقيق....

واستطرد كأنه يُلقي محاضرة:

ـ ينفع إن الكلب يحب قطة؟ أو ينام معها؟

خاف حنّا من أن يباغته الحزام، مرةً أخرى، فلم يشأ أن يظل صامتًا، رغم أنه لم يفهم ـ تمامًا ـ معنى السؤال.

قال وهو يُغالب وجعَه:

ـ لا.

ـ ولا أنت مسموح لك أن تبص لغير نوعك...

170 قال الصوت... ثم تخلَّى عن نبرته الهادئة وزعق فجأةً:

ـ البلد فيها نظام... يا حيوان.

(4)

تدفَّق الفجر من الكوة العالية، كينبوع ماء من الجنَّة، وأعلن ببريقه الفضيّ انتهاء يوم الشؤم، شأنه شأن كل الأيام، غمر النورُ الأرضَ القاسية الخرسانية السوداء الرطبة، فقام حنًّا من موته، كأنه يُبعث من جديد، ووجد نفسه يفكر ـ دون مبررات ـ في أبيه، لم يلُمْه لأنه جاء به إلى هذه الدنيا، بكل ما تحمله من أسى وشقاء، مثله مثل كل أب يأتي بولد، وقبل أن يُعلِّمه فنون مواجهة الألم، يتركه وحيدًا عند الصليب، يصرخ مناديًا بملء صوته:

ـ أبي أبي... لماذا تركتني؟

ولا مُجيب!

وفجأة، خطر له خاطر، أن والده مات فعلًا، وهو يؤمن أن ابنه قد رأى الملائكة، وربما كان يظن أنها ستحفظه، تُحيطه بأجنحتها، فلا يصطدم بحجر رجله، وأن يومًا سيأتي لتحمله بعيدًا بعيدًا، إلى جنة ليست من صنع الأرض، كجنة آدم، بل إلى جنة لن يُطرَد منها أبدًا، بابها ضيق، وأنهارها دموع، فمكانه ليس ها هُنا، لقد عرف ليلة أمس أنه كان حيًّا بين أموات.

كان يسخر من الجميع بصمته، لأن أعظم ما يمكن أن يواجه به موتهم هو اللا مبالاة، فليس ثمة لغة بين حيٍّ وميت، إلا الصمت، وهذا أيضًا، لن يفهم به الواحد منهما الآخر، حتى ولو أراد كلٌّ منهما ذلك.

انسكب النور الفضي في الزنزانة، متدفقًا من الكوة العالية، فغلف حيطانها ببهجة مُفتعلة، هدهدت جسد حنَّا المُهان، فنام كما نام صغيراً، وهو يحلم بالملائكة، وفي داخله يقين، أن هذا هو وقتها، وأنها ستأتي برفيف أجنحتها، لتحمله إلى الجنة التي لا يموت فيها بنو آدم، ولا يُطردون، وما عليه الآن، إلا أن يخلع جسده المُنهك، مُحرِّرًا رُوحَه من ردائها، كما كان يتحرر هو في شقته وحيدًا، إلا أن منظر رُوحه دون الجسد لن يكون قبيحًا، كمنظره دون ملابس في المرآة، فالروح ليست لديها خصيتان ولا قضيب ولا رغبة، وليست

ثابتة على الأرض، إنما تُحلِّق كطائر أبيض، كما يتخيَّلها حنًّا الآن، تدور وتدور، كأنها تحوم حول الجسد الفارغ الذي لا يعني شيئًا، جسده الثقيل الذي أنهكه هروبه من الدنيا بالنوم، حيث قضى نصف عمره تقريبًا، ينبش في ذاكرة رُوحه عن قصص حقيقية، ليست كتلك التي يصنعها العالم بواقعه السخيف، ولكن بعد اليوم لن يجعل بطل قصته ثعبانًا، ولن يجعلها كذلك تحترم التنوع الزائف لبني آدم، فكلهم إنسان، يمتلكون رُوحًا واحدة، بيضاء ونقية، لم تشملها لعنة الرب على نسل كنعان، تلك التي سوَّدت أبدانهم فحسب، لأن جدهم الأخرق رأى خصية أبيه النائم فضحك، يا لبؤس هذه الدنيا العمياء!

من بين قضبان الكوة الضيقة، مرق عصفور صغير تائه، أغراه سكون حنًّا، الذي يُناجي رُوحَه وينتظر الملائكة، بالدخول، فوقف فوق كِسرة خبز بجانب باب الزنزانة الحديد، وأخذ ينقرها بمنقاره، بدرت من حنًّا حركة، فطار العصفور، حلَّق حتى السقف وعاد، ثم راح ينقر كسرة الخبز مجددًا. «هل يعرف أنه في زنزانة؟» تساءل حنًّا، وهو ما بين النوم واليقظة، وكان صوت رفيف جناحي العصفور قد اختلط عليه، فهو في ساعة كان ينتظر فيها رفيفًا آخر، لن يأتي طبعًا، لأن الملائكة لا تزور الناس في الزنازين.

راح ينظر في سكون إلى العصفور بحقد، رغم أنه كان يتفاءل بمثل هذه العصافير الصغيرة، إلا أنَّ رغبة غامضة، لكنها ليست شريرة، تولدت في داخله فجأة، لما وجد العصفور ينقر كسرة الخبز أمامه باطمئنان، حيث أراد، بوهج هذه الرغبة، أن يقتله، بحث بعينيه عما يُمَكِّنه من فعل ذلك، فلم يجد شيئًا، إلا أن جلّاد ليلة أمس، الذي لا تزال جلداته الثلاث تلتهب نارًا على جسده، ألهمه، فاستلَّ هو الآخر حزامه، حزام بنطلونه الجينز السميك.

كان العصفور صغيراً جدًّا، بحيث لم يتمكن من فهم هذه الحركة، وربما كان مطمئنًا لأن له جناحين، أو جائعًا بدرجة أكبر من كل المخاوف، فلم يكترث لحنًا ولا لحركاته المريبة، حيث كان يضبط حزامه في يده، ويتربص للعصفور الغافل بدهاء.

وكان يفكر في مدى سرعة طيران العصفور إلى الكوة العالية، قياسًا بسرعة يده النازلة فوقه بالحزام، وفجأة انتفض، وبكل قوته نزل بحزامه على مكان العصفور، كيفما اتفق، إلا أن العصفور دائمًا الأسرع، خُيِّل لحنًا أنه سمع أنفاسه ودقات قلبه الصغير، وهو يطير بسرعة، هاربًا من الكوة.

بلا شك، لقد هدأ العصفور وانتظمت دقات قلبه، حتى

ولو لم يكن قد أكمل طعامه، حينما طار هاربًا من الكوة، ولكن حنًّا لم يهدأ، ولا حزامه كذلك، لقد ظل يلوِّح به في الفراغ، منصتًا لذلك الصفير الذي يتألم به الهواء، حتى الآن.

ولا تظنوا أنني أقصد بتلك الآنية زمنًا مُحددًا، فاليوم الذي أكتب لكم فيه هذه القصة، يفصله عن اليوم المشؤوم الذي حدث فيه، السنين، كنت خلالها أغيب عن المدينة كثيراً، وأعود ـ أنا الآخر ـ في إجازة، لأجد حنًّا هو هو، لم يتغير، كأنما توقف الزمن ـ فجأة ـ أمامه ولم يمر، أو كأنه قد خرج للتو من زنزانته الكئيبة، بقدميه الحافيتين وقميصه المقطَّع.

وزِد على ذلك، بفعل السنوات التي مرت عليه، وعلى المدينة، كأنها لمح البصر، طبقات وطبقات من الوسخ على ذراعيه وقدميه ووجهه وشعره، وهذا الأخير قد صار ملبدًا بصورة غريبة، فلا يمكن أن يصفه المرء المُنصف شعرًا، إن شاء الدقة، بل خصلات سميكة مضفورة بالوحل، بدت كأنها حيات تتنامى فوق رأسه الكبير، كنت أراه، على هذه الهيئة، يجري بطول شارع الكورنيش ثم يعود، ليبدأ الكرة من جديدة، وهو يلوِّح بحزامه الجلد، ويصرخ بنفس الكلمات التي ردَّدها أمامهم في ذلك اليوم البعيد.

حينما فتحوا عليه باب الزنزانة، فوجدوه يلهث صارخًا

حتى الاختناق، وهو يلوِّح بحزامه، أملًا في طرد الأرواح الشريرة، التي لا يصح أن تأتي ملائكة في حضرتها، نزعوا منه الحزام، وهددوه بالعصي، وربط أحدهم يديه من الخلف، وهو يعاتبه مستنكرًا:

ـ البلد مولعة... وانت عامل مجنون!

فأخبرهم حنًّا بلهجة غاضبة، أن سماء تلك المدينة الملعونة، ستهطل على رؤوسهم مطرًا من العصافير الميتة، وأنهم سيموتون جميعًا تحت رائحتها النتنة.

فضحكوا...

إذ لم يكن هناك مجال أمامهم حتى يشرحوا، كيف تسلل مجهولون بزجاجات المولوتوف، في تلك الليلة، وأحرقوا الكنيسة.

هدرا جرجس

- ولد في 7 يناير 1980 بأسوان.
- تخرج في كلية الآداب، قسم الصحافة، سنة 2000، ويعمل صحفيًّا.
- عضو لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة ونقابة الصحفيين واتحاد الكتاب.

صدر له:

1 - **مواقيت التعرِّي** ـ رواية.

طبعة أولى ـ سلسة إبداعات ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة 2007.

طبعة ثانية ـ سلسة الأعمال الخاصة ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة 2009.

حصلت على المركز الأول في جائزة ساويرس للأدب المصري 2008.

ووصلت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر في دورتها الأولى 2008.

2 - **بالضبط... كان يشبه الصورة** ـ قصص متتالية.

طبعة أولى ـ الدار للنشر والتوزيع 2010.

طبعة ثانية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة 2013.

حصل عنها الكاتب على جائزة الدولة التشجيعية 2011.

3 - **عصفور الجنة** ـ حكاية للأطفال.

كتاب قطر الندى ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ 2013.

صيَّاد الملائكة

وبينما هو يدخن، تخيَّل غرفته كصندوق مُغلَق، أرضه سقف لصندوق آخر، يرقد تحته صاحبه القديم حسين على كرسيِّه المتحرِّك، وسقفه أرض لصندوق ثالث، يتضاجع فوقه مُدرِّس ومُدرِّسة حديثا الزواج، وأضلاعه حيطان مشتركة لصناديق أخرى، منفصلة ومتراصَّة تحت وفوق وجنب بعضها، بصورة لا نهائية، بداخلها حيوات متنوعة ومُعقَّدة، وناس لا تعرف بعضها بعضًا...

هدرا جرجس

روائي مصري، حصلت روايته الأولى "مواقيت التعرّي على المركز الأول بجائزة ساويرس ٢٠٠٨ ووصلت إلى القائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية، كما حصل على جائزة الدولة التشجيعية عن متتاليته القصصية "بالضبط كان يشبه الصورة."

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

تصميم أحمد مراد